

أولاً : العقيدة والفلسفة

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
بإسكندرية

أثر السياسة في المذهبيات الإسلامية
((نشأة - احتضان - انتهاء))

إعداد
د/ هويدا فؤاد الطويل
المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بالكلية
(م ٢٠١١ - ١٤٣٢)

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيراً لايسعه مقام، والصلوة والسلام على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - المبعوث رحمة للأنام اللهم اجعلنا من المقتدين بسيرته الشريفة، وسيرة آل بيته الأطهار، وأصحابه الأبرار، مadam توالى الليل والنهار.

أما بعد

مما لا شك فيه أن هناك مجموعة من الأسباب تجمعت وراء ظهور الفرق والمذهبيات، يرجع بعضها إلى البشر الذين يعتقدون الإسلام بما فيهم من تطلع إلى الفهم والاختلاف المترع. ويرجع بعضها إلى ضرورات النمو الحضاري بما فيه من نمو الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويرجع بعضها إلى ضرورات الافتتاح على العالم بما يموج فيه من عقائد مناوئة، ويرجع بعضها الأخير إلى ضرورات النفس البشرية في ترددتها بين الترعة الوداجانية والتزعة العقلية واضطرابها بينهما، كما يرجح - أيضًا - إلى حقيقة التفرق ذاتها^(١). خاصة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشير إلى أن الطبيعة الإنسانية ت نحو نحو التفرق والتحزب فيما روى عنه من أحاديث، منها ما رواه عنه الإمام البخاري بسنده في صحيحه: «لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمقى بأخذ القرون قبلها شبراً بشير وذراعاً بذراع»^(٢) والمقصود اتباعهم في نزعة التفرق ضمن أمور أخرى كما يشرح ذلك ماجاء في روایة أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال: «ألا إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعين في

(١) انظر: يحيى هاشم حسن فرغل: الفرق الإسلامية في الميزان ص ١١:٩ الأفق العربية.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتبّعن سنن من كان قبلكم، رقم الحديث ٦٨٨٨، ٦٦٦٩ (٦).

من عند الله سبحانه ومساواه إلا أباطيل أو ابتداع.

منهج البحث :

لقد قمت في سبيل إعداد هذه الدراسة إلى استخدام عدد من المناهج البحثية على النحو التالي:

أولاً: المنهج الوصفي والذى يعني جمع البيانات للاستفادة منها، وقد استخدمت هذا المنهج عن طريق تضمين كافة البيانات التي توافرت تحت يدي في ثنايا الدراسة في محاولة لتكوين رؤية واقعية عن تلك المذهبيات الوارد ذكرها في البحث.

ثانياً: المنهج التاريخي لتبع نشأة الفرق والمذهبيات المستعان بذكرهم في الدراسة وكان ذلك يقدر ما يخدم فكرة البحث وهو التركيز على النشأة السياسية فقط.

ثالثاً: المنهج التحليلي: حيث قمت بتحليل كافة الكتابات المتصلة بموضوع الدراسة قدر المستطاع لاستخراج أهم الأفكار الواردة بها وتوظيفها لخدمة الدراسة، كما حاولت استبatement بعض الحقائق المهمة للدراسة، وناقشت بعض الأفكار وعلقت عليها. وإن كان تعليقي هذا قد أدرجته في هامش هذه الدراسة محاولة لعدم التدخل في النص.

طريقة البحث:

١- عزو الآيات القرآنية إلى مكانها من السور بذكر (اسم السورة، ورقم الآية).

٢- كماعزو الأحاديث النبوية لمصادرها.

٣- اتبعت القواعد البحثية في النقل عن الآخرين سواء كان نصاً أم تصرفاً.

٤- كما قمت بوضع بعض العناوين الجانبيّة والترقيم لبعض الموضوعات لفت الانتباه إليها.

٥- اعتمدت على المراجع الأصلية كلما توفرت ذلك لما لها من تأصيل للبحث.

٦- لم أغفل الدراسات الحديثة في ذات الموضوع باعتبارها نتاج مرحلة متقدمة من البحث للعقل الإنساني.

النار واحدة في الجنة وهي الجماعة»^(١) وتفسير هذه الترعة التفريقة بمحدها عند علماء الاجتماع الحدثين في تقريرهم أن الروابط تنشأ في الجماعة بداع من الإرادة والمصلحة، وأن المصلحة يقصد بها الأهداف التي تتجه إليها إرادتنا، وإن هذه المصلحة كما تفعل فعلها في تكوين الجماعة فهى تفعل فعلها كذلك في تقسيم الجماعة إلى رابطات أو فرق أو مذهبيات أو مجموعات داخلية^(٢).

ومن الملاحظ: أنه في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان النظام والاستقرار والسلام قائماً بين الترعة الوجданية والترعة العقلية، إلا أنه حدث الاحتلال بينما بعد ذلك، وكان من نتائج هذا الاحتلال ظهور التطرف في كل من الترعين، وقد اجتهد العلماء في تصنيف الفرق وفي إرجاعها إلى مجموعات رئيسية وفي اكتشاف محاور مذهبية يمرى حولها التقسيم ولم يستقرروا على رأى واضح.

وتأتي في مراتب متأخرة الأسباب العديدة الأخرى التي أشرت إليها سابقاً، فكان اختيارى لهذا الموضوع لأسلط الضوء على الناحية السياسية هذه، ولم يكن هذاماً قبل الإقرار بإنفرادها وتوحدها في تفسير ذلك الأمر تفسيراً فكائياً، وإنما لقناعة شخصية ودلائل واقعية وأدلة تاريخية ويقينية تؤكد وجاهة هذا العامل وهيمنته على غيره؛ لذا أردت الخوض في مضمار هذا الأمر بما يحمله من أمور متشابكة وشائكة في ذات الوقت.

وللتتأكد بأن الأمر لم يكن في يوم من الأيام فرقة دين أو عقيدة، وإنما دوماً يبدأ سياسياً ثم ما يليه أن يلبس لبوساً دينياً لاستغلاله في استقطاب العامة وإيهامهم بأنه الحق المطل

(١) صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق رقم الحديث ٦٢٤٧ (١٤٠٤)، سنن أبي داود كتاب السنة بباب شرح السنة ٤٥٩٦ (١٩٧٤)، سنن الترمذى كتاب الإيمان بباب ما جاء في إفراق هذه الأمة ٢٦٤٠ (٥٢٥).

(٢) انظر ل.ر. ماكفير أستاذ الاجتماع الأمريكي في كتاب الجماعة دراسة في علم الاجتماع ترجمة محمد على أبو دره ولouis إسكندر ومراجعة د/حسن الساعاتي ص ١٣٦:١٥٩.

الإسلام والمذهبية^(١)

تمهيد:

نفي الدين الإسلامي عن التفرق في الدين، وأمر بالاحتفاظ بالوحدة جاء في من الكتاب العزيز قوله تعالى "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلُفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأَوْتَلِكُمْ هُنَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ"^(٢) وقوله تعالى "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا"^(٣) وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعَةً لَّتَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ"^(٤) وقوله تعالى: هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَبَعُوا أَسْبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِمْ"^(٥). ويدرك غير واحد من المفسرين في الآية السابقة رواية الدارمي أبو محمد في مسنده بإسناد صحيح أخبرنا عفان حدثنا حماد بن زيد حدثنا عاصم بن محدلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال: «هذه سبل على كل سهل منها شيطان يدعو إليها»، ثم قرأ هذه الآية: "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا...."^(٦)

(١) المراد هنا من المذهبية هي "المذهبيات العقدية أو الكلامية لأن المذهبيات الأخرى (فقهية - لغوية - طرق صوفية) لاصلة لها بالسياسة.

(٢) آل عمران: ١٠٥.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) الأنعام: ١٥٩.

(٥) الأنعام: ١٥٣.

(٦) الأنعام: ١٥٣.

٧- حرصت على الإيجاز بقدر المستطاع لطول الرحلة الإنسانية في هذا السبيل ولكن قد توخيت أثناء ألا يتخطى يتحطى حد الضرورة، وحد الضرورة أن يكون كافيا لتقرير النتائج التي يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير.

خطة البحث :

(أثر السياسة في المذهبيات الإسلامية)

"نشأة - احتضان - انتهاء"

أولاً: مقدمة ذكرت فيها مدخلا للدراسة يتضمن أهمية الموضوع وسبل اختياره كما اشتملت على منهج البحث وطريقة إعداده وخطته.

ثانياً: تمهد عن "الإسلام والمذهبية" اشتمل على:

أ-أسباب عدم ظهور المذهبيات في حياة الرسول "صلى الله عليه وسلم"

ب-أسباب عدم ظهور المذهبيات في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب.

ثالثاً- الفتنة وأثرها في ظهور المذهبية واشتمل على

أ-قتل عثمان بن عفان وظهور الفتنة.

ب-البيعة لعلى كرم الله وجهه "بداية المذهبيات".

- الخوارج بدأة وتفرقها.

- الشيعة والنشأة السياسية.

- المرجحة بوجهها السياسي .

رابعاً: تسييس بعض المذهبيات العقدية (فتنة خلق القرآن واحتضان مذهب المعتزلة).

خامساً- أسلوب الاحتضان والتبن لبعض المذهبيات الإسلامية واشتمل على

أ- الدولة الفاطمية واحتضانها للمذهب الشيعي.

ب- دولة السلاجقة واحتضانها لمذهب أهل السنة.

ج- الدولة الأيوية والقضاء على التشيع وترسيخ مذهب أهل السنة.

أخيراً: أهم النتائج، ثم فهرس الموضوعات.

للتجرید المثالي الذى عرفته الحضارة اليونانية^(١)، ولا التركيب النظمي الذى عرفته الحضارات الرومانية والكاثوليكية^(٢)، ولا الاستيعاب المطلق الذى سيطر على غوذج الدولة القومية^(٣).

فالنموذج الإسلامي جاء ليجمع بين خصائص متعددة يقدم مذاقه الخاص التميز فهو يجمع بين الفكر والحركة، وهو يخلق توازناعينا بين الحاكم والمحكوم، وهو لاينسى أن السيادة وليدة القوة، القوة هي وحدها التي تحمى الشرعية: فالجمع بين الخصائص المتباينة والمتعارضة هو المحور الحقيقي الذي منه تتبع طبيعة وجوبه النموذج الإسلامي وبه تحدد خصائص الممارسة السياسية^(٤).

ويعد هذا أمراً طبيعياً حيث أن الخبرة الإسلامية لم تكن خيرة مغلقة، لقد تعاملت مع

(١) حيث تركزت حول صفة أساسية هي تأثير الفكر المثالي المجرد على حساب الحركة فأفلاطون وأرسطو ليس أى منها سوى اسم ضخم في مجموعة كبيرة من الأسماء التي عبرت عن حقيقة مزدوجة: تأثير فكري في نطاق الأخلاقيات السياسية من جانب ثم فشل حركي في تقديم النماذج الصالحة لحل مشكلات المجتمع اليوناني.

(٢) حيث كان طغيان الحركة التي تعنى القوة هو المحور الوحيد الذي يسيطر على الممارسة الرومانية، وقد قدم لنا هذا النموذج إطاراً واضحاً للدولة المستبدة المسيطرة في نطاق القومي والخارجي، وإذا انتقلنا إلى النموذج الكاثوليكي في قلب العصور الوسطى وبصفة خاصة خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر يمكن أن نوضح سلوكه فيما يسمى بالتعصب الاستفزازي والدينى المطلق بما يترتب عليه من نتائج كبيرة أساسها رفض التصورات المخالفة والإلتجاء إلى الطرد من الكنيسة في كل مناسبة تشعر فيها الأدلة الدينية بالفشل أو الخوف من المواجهة.

(٣) الدولة القومية الذي تمثل فيها غوذج يقوم على أساس سيادة الفرد وجعل حقوق المواطن تحمل المحور الأول والأخير للوجود السياسي.

(٤) انظر: حامدريبع: نظرية القيم، محاضرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ص ٦٩ وما بعدها ط

- كما اهتم صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - بالقضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية للإسلام حيث ورد عنه الكثير من الأحاديث التي تنهى عن دعوة الجاهلية وهي قوله تعالى: "لَا يَنْهَا الرَّبِيعَةُ عَنِ الدِّينِ" ^(١) .

وسبب ذلك أن هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هوناصل للدعوة ومؤيد لها وقاهر لها وقف في سبيلها، وكانت نتيجة ذلك أن تآخي العدنان والقططان والمضرى والربعى والقيسى والكتعان بعد أن كانوا أزواجاً يكيد بعضهم لبعض وتفان قوتهم جميعاً أمام الأمم التي تخيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية^(٢).

- فمرحلة المدينة الدولة: الحكم فيها كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومصدر القواعد السياسية لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم هو مصدر إلهي لا يخضع للقواعد البشرية^(٣) وعلاقة السلطة علاقة دعوة وإيمان وولاء، فضلاً عن أنها تغلفها رابطة الاتصال المباشر بمحكم خصائص التطور الاجتماعي^(٤).

اذن: فالعلاقة السياسية في المجتمع الإسلامي كانت تمتاز بالبساطة بحيث لم تعرف

(١) جزء حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان — رقم (١٤٨).

(٢) انظر الشيخ محمد الخضرى بـ: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٤٨٧.

(٣) مملاشتك فيه أن القرآن لم يتضمن نصوصاً تفصيلية تتعلق بتحديد قواعد الممارسة السياسية، ولكن الواقع أن النصوص القرآنية والتعاليم التي نسبت من مدرسة الرسول حلقت إطاراً فكرياً لما هي عليه الممارسة السياسية بحيث يمكن القول بأنها وضعت مجموعة من المبادئ التي من نسيجها يمكن أن تكون إطار القيم السياسية.

(٤) انظر: أ.د/ حامدريبع: مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي — تعليق د/ سيف الدين إسماعيل مكتبة الشروق الدولية.

بِنَعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَيْتِيَهُ لَعَلَّكُمْ تَهَتَّدُونَ^(١) ويؤكد الرسول الكريم على أمر الوحدة إذ يقول: "كلكم لأدم وأدم من تراب لا فضل لعربي على أعمى إلا بالتفوى..."^(٢)

- ولقد حمى الرسول الكريم تلك الوحدة الوليدة مما كان سبباً للتفرق فيما بعد وهو العصبية الجاهلية، والتفاخر بالأنساب وماهى النبي - صلى الله عليه وسلم - مستكرأً أمراً كماهى عن العصبية الجاهلية حيث قال: "ليس من دعا إلى عصبية وليس من قاتل على عصبية"^(٣).

ولقد روى مسلم والنمسائي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "من قتل تحت راية عمية يدعوا لعصبة أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية"^(٤) ولقد ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - في سبيل تثبيت أمر الوحدة عن أن يقتل المسلمون بعضهم ببعض لذا قال: "إذا تواجه المسلمين فالقاتل والمقتول في النار" فقيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول! قال: "كان حريصاً على قتل صاحبه"^(٥).

ويقول صلى الله عليه وسلم: "لا يشரأحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان يترع في يده"^(٦)، ويقول صلى الله عليه وسلم: "سباب المسلم فسوق وقتاله

(١) آل عمران: ١٠٣: ١٠٢.

(٢) رواه البيهقي في الشعب باب في حفظ اللسان (٤ | ٢٨٩) ورواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩).

(٣) سنن أبي داود كتاب الأدب باب في العصبية رقم الحديث (٥١٢١) (٤/٣٣٢).

(٤) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتنة رقم (٣٤٤٠).

(٥) صحيح مسلم كتاب الفتنة وأشرطة الساعة باب إذا تواجه المسلمين بسيفهما رقم (٥١٣٩).

(٦) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم رقم (٤٧٤٢).

الغرب والشرق، تعاملت مع الحضارات الهندية والصينية والفارسية، ومارست الارتباط الفكري والحركي بالحضارات اليونانية والرومانية والكاثوليكية، فهل ظلت إزاء جميع هذه النماذج للوجود تقف موقفاً سلبياً وعدم الاهتمام، أم إنها خلقت قنوات اتصال سواء كانت من جانب واحد أم من جانبين؟ إن منطق الوجود يفرض الإجابة بالمعنى الآخر فلا تعامل بدون تأثير أو تأثر.

أسباب عدم ظهور المذهبية في حياة الرسول: اتضحت هذه الأسباب بما تخلّى به الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - من مواهب سياسية وخبرة عميقة بالأمور حيث اعتنى العقيدة والدين سبيلاً للوحدة بدلاً من العصبية القبلية ونظمها، حيث أصبحت الوحدة في العقيدة والدين هي القاعدة لنظام المهاجرين والأنصار، والسبيل إلى نبذ العصبية القبلية الضيقة الأنف والإحاطة بكلّة أسباب الفرقة ومواطنها. بخطوات عملية تطبيقية حيث جمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين العناصر المختلفة ومزج بينها ليخرج منها مزيجاً متخدداً في خواصه وأوصافه، تلك الأوصاف التي ترمي إلى كونها أمة إسلامية موحدة في الغاية والمقصد والاتجاه إلى الله تعالى، والقيام بالإصلاح في الأرض لا الإفساد فيها، وقد وضع هذا العمل تحت مسمى الإباء أو المواجهة بين المسلمين جميعاً عربهم وأعجمهم، وأبيضهم وأسودهم. فلم يكن الإباء مجرد المؤانسة ولكن المراد منه وضع الدعامة الأولى لبناء وحدة إسلامية متحمّلة غير متفرقة، ومتعددة غير منقسمة، ومتلقة غير متغيرة^(١).

ولقد أكد القرآن الكريم على هذه الوحدة في قوله تعالى "يَتَآمَّلُونَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِلِهِ وَلَا تُمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمُ مُسْلِمُونَ" وَأَغْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّقُوا وَإِذْذَكُرُوا يَعْمَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَالْفَلَقَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَخْتُمْ

(١) انظر في ذلك: الإمام محمد أبو زهرة. الوحدة الإسلامية ص ٦٠ وما يليه ط ٢١٩٧٧ م دار الفكر العربي.

كما أقرّ الرسول الكريم "نظام الشوري" التي قوى بها روح الجماعة ودرّبها على تقديم المصلحة العامة على المصلحة الفردية، فالتشريع السماوي الذي جاء به القرآن الكريم لا يعني حرمان الناس من المشاركة في تنظيم أمورهم، وإنما يفتح هذا التشريع كافة السبل أمام أعضاء الدولة لإبداء الرأي في جميع المسائل وبخاصة ذات الأهمية العامة، وأكّدت الآيات القرآنية على هذا الأمر في قوله تعالى: "فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأُمْرِ"^(٢) وفي قوله تعالى موكداً أهمية هذا النظام في حياة أفراد الدولة "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"^(٣)، وأتاح نظام الشوري هذا أن يكون غواذجاً للارتباط الوثيق بين الحاكم مهما كان وظيفته وبين المحكوم مهما كان دوره في الدولة، فالجميع وفق نظام الشوري شركاء في بناء حياتهم وقد حقق هذا النظام الانطلاق السليم للدولة الإسلامية الفتية^(٤)، فضلاً عن وجود أسباب أخرى استدعت عدم ظهور المذهبيات العقدية في حياة الرسول منها:

- أ/ كون الوحي رواح غداء.
- ب/ كون الرسول مرجع ديني.
- ج/ الأقلية العددية وطبيعتها.

د/ الآيات التي تكشف له كل ما يحدث^(٥).

وفي نهاية هذا الأمر نستطيع أن نجزم:

أولاً: بأنه قد تتكامل على عهد الرسول الكريم العناصر الأساسية للفكر الإسلامي من وجود نظام إسلامي كامل ذو قانون واحد ينظم الحياة ويرسم لأفراده سبل العمل في الداخل والخارج، واكتسب هذا النظام إلى جانب الركن الدينى للإسلام الطابع السياسي الذى يوصف بأنه دولة.

ثانياً: مبدئية التفكير للفرد صار الجانب إلهام الذى هبّ الرسول الكريم عن طريقه جماعة المسلمين لإظهار مالديهم من طاقة كامنة وإخراج القيادات الوعائية من بين صفوفهم.^(٦)

ثالثاً: اقراره صلى الله عليه وسلم لمبدأ الشوري باعتباره القاعدة التي يعتمد عليها التوازن في النظام الإسلامي الكامل واستطاعت الدولة الإسلامية أن تجتاز في ظل هذه القواعد الأساسية للفكر الإسلامي أول مرحلة من مراحل تطورها السياسي، لذا انتفت أسباب ظهور المذهبية في حياة الرسول الكريم، حيث كان المسلمون في وفاق يتلقون الأحكام والتعاليم من المشرع الأكبر وهو يلقى عليهم أحكام ما يعرض لهم فيسائر الحالات بروح من الله، وقد يجتهد في نطاق ضيق ويستشير قبل ذلك ثم يقرر ما أداء إليه اجتهاده والله تعالى قد يقر ذلك الحكم وقد يدين به إلى تصويب فيه.

(١) لقد أثرت عدم الخوض بتوسيع في بيان تلك الأسباب لبعدها الواقعى عن الجانب السياسي موضوع البحث.

(٢) حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير المسلمين في جميع الأمور التي لم يتزل فيها الوحي وذلك لتنمية قدراتهم على مواجهة التطورات والملابسات الزمنية التي لاتفترن بص صريح راجع في هذا : د/ إبراهيم أحمد العدوى: تاريخ العالم الإسلامي ص ٩٧.

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حوف المؤمن من أن يحيط عمله وهو لا يشعر رقم (٤٦).

(٤) آل عمران: ١٥٩.

(٥) الشوري: ٣٨.

(٦) انظر: د/ إبراهيم أحمد العدوى. تاريخ العالم الإسلامي جـ ١ ص ٧١: ٧٣.

أسباب عدم ظهور المذهبية في عهدى أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما:
إلا أنه قبل الحديث عن عهدى أبي بكر وعمر يجدر بنا أن نشير إلى وقوع أول خلاف ناشئ بين الصحابة في أيام مرضه صلى الله عليه وسلم وذلك مارواه البخارى إنه لما اشتد المرض بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك مرض الوفاة قال عليه السلام: "آتوني بدوارة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لاتضلووا بعدي" قال عمر رضى الله عنه: إن الرسول قد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله وكثير اللغط فقال عليه السلام: "قوموا عنى لا ينبع عندي التنازع"^(١).

والخلاف الثاني: عندما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج أسامة على رأس جيش وقال: لعن الله من تخلف عنه. عند ذلك اختلف الصحابة فقال الأكثرون: يجب علينا امثال الأمر و قال الباقيون ومنهم عمر: لقد اشتد مرض النبي صلى الله عليه وسلم فلأنه يطبق مفارقة وهذا الخلافان هما تأثير عظيم وإن كان الظن إهما وقعا عن حسن نية واجتهاد.

والخلاف الثالث: عندما توفى عليه السلام قال عمر: من قال إن محمدًا قدمات قتله بسبفي هذا وإنما رفع إلى السماء كمارفع عيسى واشتد التراغ بين المسلمين فأنبرى أبو بكر وخطب في الناس قائلاً "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الْأُرْسُلُ" أفلين مات أو قُتِلَ آنفَلَتُمْ عَلَى أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضْرُرَ اللَّهُ شَيْئًا" ^(١) وتلا قوله تعالى: "إِنَّكَ مَيْتٌ وَإِنَّمَا مَيِّتُونَ" ثم قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت فرجعوا إلى الوفاق وقال عمر والله كان لم أسمع بهذه الآيات من قبل.

(١) راجع في هذا : محمد الطاهر النيفير: أهم الفرق الإسلامية ص ١٥:١٦ الشركة التونسية للنشر والتوزيع.

(٢) انظر تفاصيل أحداث السقيفه في الوحدة الإسلامية للإمام أبو زهرة ص ١١٥: ١١٦، والمرجع السابق ص ١٧: ١٨.

السياسية باسم "الشوري"^(١) واستطاع نظام الشوري هذا أن يسمو بالروح العربية عن العصبية ومساوئ الجاهلية. كما وسع الأفق السياسي العربي ونقله من أفق القبيلة الضيق إلى رحاب الدولة الإسلامية كلها، والنظر في شئونها وشئون أهلها دون تمييز أو مراعاة لاعتبارات العصبية ودفافعها العمياء، وقد بلغ هذا النشاط أوجهه في عهد عمر بن الخطاب لذا كان أعظم عهود النظم الإسلامية وتطورها^(٢).

ويمكن استجماع قواعد أساسية قد تقررت في عهد أبي بكر وعمر كان من شأنها القضاء على العصبية المفرزة للمذهبية آلا وهي:

١- إقامة الخلافة واجب مقدس على مساواه إذ اتضح في سقيفة بني ساعدة أن الجميع مهاجرين وأنصار كانوا ب رغم تباين آرائهم متافقين على ضرورة إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- تحديد معنى النظام السياسي الجديد على نحو مقالة أبو بكر وهو يخاطب المسلمين: "لابد لكم من رجل يلي أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم" فأوضح أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية التراث الديني والمدنى.

٣- إقرار الانتخاب الحر قاعدة للخلافة وليس نظام الوراثة.

٤- تقرير حق الأمة في اختيار الخليفة عن طريق الجماعة التي أطلق عليها "أهل الحل والعقد" والنص على حق الأمة مرة أخرى في الرقابة والمناقشة عند إتمام اختيار الخليفة.

٥- تحديد سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييده بـ دستور الإسلام - القرآن والسنة - وتجلى

(١) حيث جاءت المبادئ الإسلامية للشوري من نص القرآن الكريم (راجع آل عمران ١٥٩، والشوري ٣٨ وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وقد ضرب الرسول الكريم لجماعة المؤمنين الأمثلة العديدة في تمسكه بالشوري التزاما لأوامر القرآن الكريم وتدريراً لأتباعه على الإفادة من هذا النظام.

(٢) انظر: إبراهيم أحمد العدوى: تاريخ العالم الإسلامي ص ١٣٣: ١٣١.

٦- **تُطَهِّرُهُمْ وَتُرْكِيمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**^(١). فقالوا لـ سنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا وقد تكلم الصحابة^(٢) مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه حتى يتمكن الإيمان ويقوى في قلوبهم فامتنع الصديق وأبي أن يغض البصر عنهم وعزم على الجهاد إلى أن ينتصر الإيمان على الردة واستقام أمر المسلمين على وحدة جامعة شاملة قام على حراستها صديق الأمة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

انتفاء المذهبية في عهد عمر بن الخطاب

حيث كان عصره هو العصر الذى استبان فيه سلطان الكتاب والسنّة وتطبيقهما نظيفاً سليماً، وحكومة هي الحكومة الإسلامية التي تعد بعد حكومة الرسول وخليفته المثال الذي يتبّع، حيث جمع بأمر الله ونهيه العربي والأعجمي في ظلال العدل الإسلامي.

١- فقد ابتدأ بتنظيم العلاقة بين دار الخلافة الجامعة والأمصال المترفة بحيث يتحد الحكم ويقى لـ كل مصر طبيعته التي لا تختلف المقررات الإسلامية^(٤).

٢- كما ارتبط بخلافه نشأة نظام سياسي هام كان من اختصاصه مساعدة الخلافة على أداء رسالتها وتعاونتها على اجتياز ما يواجهها من مشاكل حسام، واشتهرت هذه المؤسسة

(١) التوبية الآية ١٠٣.

(٢) حيث روى في كتب الجماعة سوى ابن ماجه عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا قالوها عصموا من دماءهم وأموالهم إلا عقدها فقال أبو بكر: والله لو معنوني عقالاً كانوا يودونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منها، إن الزكاة حق المال والله لأقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة.

(٣) راجع: الإمام أبو زهرة: الوحدة الإسلامية ص ١١٦: ١١٨، محمد الطاهر النفيسي: أهم الفرق الإسلامية ص ١٩: ١٨.

(٤) انظر أبو زهرة: ص ١٣٩.

- ١— عدم شهود غزوة بدر^(١)
- ٢— توليه يوم أحد في المعركة^(٢)
- ٣— تخلفه عن بيعة الرضوان^(٣)
- ٤— جمع القرآن الكريم^(٤)
- ٥— ضرب عمار بن ياسر^(٥)

— كما اخذت عناصر المجتمع بعد السنوات الثلاثين لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تغيرات بـ اتساع سلطان المدينة المنورة إذ ذاك من حدود يثبت على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مجال اشتمل على شبه جزيرة العرب كلها والعراق والشام ومصر وإفريقية بـ المـغرب على عهد عثمان بن عفان. وظهر الجانب التطبيقي لهذا التغيير الخطير في اتخاذ الخليفة "عثمان" مستشاريه من جماعة بنـ أمـية دون غيرها وكان ذلك مساراً اعتراض بعض الصحابة "كعلى بن أبي طالب" عن طريق نقاش طويـل دارـ بينـه وبينـ الخليفة

(١) لكن ذلك لا ينطلي إلا على الجهلة من الناس فإن أهل البصيرة يعلمون أن عدم شهوده هذه الغزوة إنما كان بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم انظر البخاري الجامع الصحيح، فتح الباري ٦٢٩/٥، والترمذى السنن ٣٦٣/٥، والترمذى السنن ٥٤، انظر أيضاً سورة التوبـة ٩١:٧

(٢) وقد ذكر الله - عزوجل - خبر فرار من فر، وعفوه عنـهم فقال: "إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعـان إنما استزـلـهم الشـيـطـان بـعـض ما كـسـبـوا وـلـقـدـعـا اللهـ عـنـهـم إـنـ اللهـ غـفـورـ حـلـيمـ" [آل عمران ١٥٥]، انظر تفصـيلـ الأمـرـ لـدىـ ابنـ تـيمـيـةـ: منهاجـ السـنـةـ النـبـوـيـةـ ٦/٢٩٨ـ.

(٣) ولم يـكونـواـ مـحقـقـينـ فـهـذاـ الـأـمـرـ أـيـضاـ لـأنـ الرـسـولـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـمـ قدـ بـعـثـ إـلـىـ الـمـشـرـكـينـ مـنـ أـهـلـ مـكـةـ، انـظـرـ صـحـيـحـ الـبـخـارـىـ ٧/٣٦٣ـ، ٥٤ـ، وـأـبـوـ نـعـيمـ الـإـمـامـ وـالـرـدـ عـلـىـ الـرـاـفـضـةـ تـحـقـيقـ دـ/ـ عـلـىـ نـاصـرـ فـقـهـيـ صـ٤ـ، ٣٠ـ.

(٤) فإنـ عـثـمـانـ لمـ يـتـدـعـ فـيـ جـمـعـهـ الـمـصـاحـفـ بلـ سـيـقـهـ إـلـىـ ذـلـكـ أـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ، كـمـ أـنـهـ لـمـ يـصـنـعـ ذـلـكـ مـنـ قـبـلـ نـفـسـهـ إـنـماـ فـعـلـهـ عـنـ مـشـورـةـ الـصـحـابـةـ الـبـخـارـىـ التـارـيـخـ الصـغـيرـ ١/٩٤ـ.

(٥) لمـ أـقـفـ عـلـىـ روـاـيـةـ صـحـيـحةـ الـإـسـنـادـ تـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ.

احترام الخلفاء لهذا الالتزام في الخطاب العامة التي كانوا يلقونها عقب إتمام البيعة. وهذه القواعد سلم عهـدـىـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ منـ نـيـرانـ الـمـذـهـبـاتـ وـالـعـصـيـانـ الـجـاهـلـيـةـ^(١)

(الفترة^(٢) وأثرها في ظهور المذهبية)

بدايةً كان ماسـهـ "عـمـرـيـنـ الـخـطـابـ" هوـ المتـبعـ فـيـ عـهـدـ "ذـىـ الـنـورـيـنـ عـشـمـانـ بـنـ عـفـانـ" - رضـىـ اللهـ عـنـهـ - فـمـاـ خـارـجـ سـيـدـنـاـ عـشـمـانـ عـنـ سـنـةـ الشـيـخـيـنـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ، وـخـصـوصـاـ أـنـ اـعـطـىـ عـلـىـ نـفـسـهـ عـهـداـ بـأـنـ يـعـمـلـ بـكـتابـ اللهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـهـ وـسـنـةـ الشـيـخـيـنـ وـمـاـ كـانـ لـمـلـلـ عـشـمـانـ بـنـ عـفـانـ أـنـ يـنـكـثـ فـيـ عـهـدـ أـخـذـهـ عـلـىـ نـفـسـهـ.^(٣)

وـإـنـ التـغـيـيرـ الـذـيـ حدـثـ بـعـدـ ذـلـكـ لـمـ يـكـنـ مـنـ عـمـلـ الـإـمـامـ الـأـعـظـمـ^(٤) إـنـماـ مـنـ عـمـلـ قـومـ آـثـارـواـ الـفـتـنـ وـحـاـولـواـ أـنـ يـفـسـدـواـ أـمـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـشـقـ الـوـحدـةـ الـإـسـلـامـيـةـ، وـمـنـ جـرـاءـ تـجـمـعـ بـعـضـ الـأـمـرـ وـالـأـحـدـاثـ اـعـتـبـرـهـاـ الـخـارـجـوـنـ عـلـىـ مـنـ قـبـلـ الـمـسـالـبـ الـتـيـ تـسـتـوـجـبـ الـخـروـجـ عـلـىـ عـشـمـانـ وـمـنـهـ:

(١) انظر المرجع السابق ص ١٠٢:١٠٤.

(٢) والمقصود منها: مقتل عثمان بن عفان وقد ثبـتـ رسولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـأـمـرـ فـيـ الـفـتـنـ فـيـ أـحـادـيـثـ صـحـيـحةـ مـنـهـاـ مـارـوـاهـ الـبـخـارـىـ عـنـ زـيـنـ بـنـ حـشـشـ أـنـهـ قـالـ أـسـتـيقـظـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـمـرـ مـعـمـراـ وـجـهـ يـقـولـ: "لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ، وـلـلـعـربـ مـنـ شـرـ قـدـ اـقـرـبـ".

(٣) حيث قال القاضي ابن العري في القواسم: كان عثمان عند الظن به فلم يخالف عهـداـ وـلـانـكـ عـقـداـ وـلـأـتـحـمـ مـكـروـهـاـ وـلـأـخـالـفـ سـنـةـ وـقـدـ كـانـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـأـمـرـ فـيـ الـفـتـنـ وـأـنـ عـثـمـانـ شـهـيدـ وـبـأـنـ لـهـ بـلـجـنـةـ عـلـىـ بـلـوـيـ تصـيـيـهـ، وـقـالـ مـحـبـ الدـينـ الـخـطـيبـ مـعـلـقاـ: وـكـيفـ لـاـ وـقـدـ شـهـدـ لـهـ بـطـهـارـةـ السـيـرـةـ وـحـسـنـ الـخـاتـمـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـمـ وـهـ لـيـنـطـقـ عـنـ الـمـوـىـ، وـقـالـ الـحـافـظـ اـبـنـ حـسـنـ فـيـ الـإـصـابـةـ: جـاءـ مـنـ أـوـجـهـ مـتوـاتـرـةـ أـنـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـأـمـرـ عـشـمـانـ بـالـجـنـةـ وـشـهـدـ لـهـ بـالـشـهـادـةـ، مـحـمـدـ الطـاـهـرـ التـيـفـيرـ: أـهـمـ الـفـرـقـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ٢١:٢٢ـ.

أثر السياسة في المذهبيات الإسلامية

منظم للإطاحة به فراسل الثوار على عثمان في مصر. وفي نهاية حديثنا عن عهد "عثمان" يمكن أن نحكم بأن النعرات والسخائم قد بدأت تعمل عملها في أحداث الفتنة وساعدت على ذلك أمور عدّة كان منها: إطلاق العنان - من قبل عثمان - لكتاب الصحابة من قريش في امتلاك الضياع مما آثار هلع بعض الفقهاء، كما آثارت أحقاد القبائل الأخرى وحسدها، فضلاً عن ذلك ظهرت أرستقراطية بيروقراطية سفيانية في الأمصار التي آلت إمرها إلى رجال بني أمية وبني هاشم، كل هذه الأمور وغيرها تجمعت لتصل بنا إلى مصير محظوظ وهو مصرع عثمان حسبما هو معروف في كتب التاريخ^(١).

البيعة لعلى بدایة المذهبیات:

واجه "على بن أبي طالب" غداة مبايعته بالخلافة (٦٥٦-٥٣٥) جبهة مثل الاتجاهات الجديدة التي سادت الدولة الإسلامية آواخر عهد "عثمان بن عفان" وضمت هذه الجبهة أصحاب المطامع الشخصية، كذلك أصحاب الثراء الجديد. كما صارت الأوضاع عند يدة على تتقاسمها وجهات متباعدة لابد لها من الاصطدام، الأولى وجهاً الخليفة ذات النظرة المثالية للحكم، والثانية وجهاً أصحاب الأمر الواقع ذات النظرة الشخصية والمصالح الذاتية.

— كما فجر الخليفة الجديد الموقف عندما استهل عهده بعزل ولاة عثمان واسترداد الاقطاعات منهم وردها إلى بيت المال، كما حاسب العمال في الولايات حساباً دقيقاً. دون أن يتربّث إلى حين إجماع الكلمة على مبايعته. ومن هنا ظهرت طلائع المعارضة لسياسة الخليفة على من قبل مجموعتين كبيرتين: الأولى: اشتغلت على "طلحة بن عبد الله" و"الزبير بن العوام" وللذين وقفت تؤازرها السيدة

(١) انظر: د/ محمود إسماعيل: الحركات السرية ص ١٤: ١٥ دار القلم بيروت لبنان.

استفاد منه البعض بأن أقصى هذا الصحابي الجليل وغيره انطلاقاً بذور الأزمة التي اشتهرت في عهد عثمان باسم "الفتنة"^(٢).

ثم ظهرت طلائع الأوضاع التي غدت مثار للفتن في خروج جماعة من الصحابة على التقليد الذي وضعه عمر إذ صار كتاب الصحابة يملكون الضياع والعقارب في الأقاليم التي انطلقوا إليها.

— وظهرت طبقة الولاية كان معظمهم من بني أمية أقرباء عثمان لا هم لهم إلا الإثراء ودعم سلطاتهم في الدولة. وانتهى الأمر بأن تكونت طبقة من جماعات المستغلين والمتغرين شأن المتهربين دائمًا للفرص في كل زمان ومكان^(٣). وصارت الدولة الإسلامية في أواخر خلافة عثمان تم بتجربة انقسم الناس إزاءها إلى ثلاثة أقسام:

١— فريق يتكون من الجماعات التي أصابها الثراء ومعظمهم من المكيين وأقارب عثمان الذين تولوا شئون الحكم.

٢— وفي المقابل فريق ثانٍ يدعو إلى الرهد والتقصيف والتمسك بسياسة المساواة بين الناس.

٣— وظهر وسط هذين الفريقين قسم ثالث ضم الاتهاريين الذين لم يعتنقو الإسلام عن اقتناع وعمدوا إلى توسيع الخلاف والنيل من البناء الاجتماعي والسياسي للإسلام والمسلمين "كعبد الله بن سبأ" الذي استطاع أن ينقل السخط على الخليفة إلى تحطيط

(١) وفي الحقيقة هؤلاء الصحابة التهمون باطلًا وزورًا بالتأليب على عثمان رضي الله عنه ثم قتلهم فيما بعد قد عذبوا الله - جلا وعلا - في مواضع عديدة في كتابه العزيز راجع التوبة ١٠٠، الفتح ٢٩، والنسل ٥٩، وحديث رسول الله في البخاري الجامع الصحيح فتح الباري ٢١/٧ "لاتسبوا أصحابي...." إلى غير ذلك من النصوص المستفيضة الدالة على فضلهم وعدالتهم فلا يحق لأحد أن يتهمهم بعد تعديل الله لهم وثناء الرسول عليهم ومعرفة الأمة لقدرهم ... راجع في هذا ابن تيمية منهج السنة ج ٦ ص ٢٤١: ٢٠٦، ابن حجر: تبييز الصحابة ص ٩٠٢.

(٢) راجع: إبراهيم العدوى: تاريخ العالم الإسلامي ج ١ ص ١٥١: ١٥٤.

وحملوه على قبولها برغم ما أبداه من خطورة هذا الأمر. وترتب على قبوله التحكيم وقوع انقسام في جيشه، كما كان بداية الوهن الذي أصاب خلافة؛ ذلك لأن إجراءات التحكيم جرت بما يضعف جهة علىَّ ويزيد من قوة معاوية وذلك لوقوع المخادعة الشهيرة التي وقع فيها مفهوم علىَّ "أبي موسى الأشعري".^(١)

وبدأت المتابعة تواجهه علىَّ بسبب خروج جماعة من جيشه عليه لعدم قبولهم التحكيم وصار هذا النفر يعلن إنكاره على الخليفة أن يضع حقة في الخلافة - وهو مقدس - للتحكيم بين الناس مع أن عثمان رفض التنازل عنها وقتل في سبيلها. وصارت هذه الجماعة من جيش علىَّ تعرف بأسماء عدة وكانت هذه الجماعة بداية المذهبيات التي ظهرت في الأمة الإسلامية.

الخوارج بدأية وتفرقًا

لم يختلف المسلمون في أمور الدين في عصر صدر الإسلام، وإنما كان خلافهم في السياسة وبالذات حول الإمارة والخلافة والإمامية، وبقصد الصراع على السلطة العلياق المجتمع تلك القضية التي ظلت طوال تاريخ المسلمين الفكرى والعملى، هي المسبع الذى تصدر منه الفرق والأحزاب....أى أن قضية الخلافة والإمارة وقضايا الصراع على السلطة العليا في الدولة، كانت دائمًا مصدر تكوين الفرق ونشأة المذاهب وظهور الأحزاب وهذا ما سيتضمن فيما هو آت. حيث إن معظم الحركات الثورية الإسلامية ترجع إلى أصل تاريخي واحد وتحتاج حول مبدأ سياسي واحد وهو دين في نفس الوقت.

فأما وحدة الأصل التاريخي فهو أنها نشأت في معركة الخلاف الذي اضطرب بين زعماء الإسلام الأولين حول مسألة الخلافة والحكم، وترعرعت في مهادن الحوادث الدموية التي آثارها الرزاع بين علىَّ رابع الخلفاء ومنافسه القوى معاوية مؤسس الدولة الأموية بالشرق.

(١) إبراهيم العدوى: مرجع سابق ص ١٥٨.

"عائشة" زوجة الرسول الكريم.^(٢)

والثانية: ضمت أبناء البيت الأموي الذين ادعوا أن لهم حق المطالبة بدم الخليفة عثمان ووقف على رأسهم معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام.

موقعة الجمل وأحداثها:

وأسفر عن المجموعة الأولى موقعة الجمل التي تقدمها مغادرة علىَّ المدينة وذهابه إلى العراق حيث طلحة والزبير محاولة اقناعهما بالحجارة والبرهان. وكاد أن ينجح في ذلك لولا المؤمرات التي قام بها السببية الذين كانوا يكرتون شطرًا من جندى علىَّ، وبادروا بالمحروم علىَّ جيش طلحة والزبير، ومن ثم فشلت مفاوضات الصلح ودارت معركة بين الطرفين (٦٥٧هـ) واشتهرت بموقعة الجمل، ودامت سبعة أيام وانتهت بمقتل كل من طلحة والزبير ورجوع السيدة عائشة إلى المدينة حيث أكرمها علىَّ بن أبي طالب.^(٣)

موقعة صفين:

وبعد أن فرغ علىَّ من معركة الجمل توجه لقتال معاوية بن أبي سفيان الذي أدى الاعتراف بخلافه ودارت بينهما معركة حينما استطاع معاوية تعبئة قواته من أهل الشام وبعثها إلى صفين على شاطئ الفرات العربي وذلك في شوال (٦٣٦هـ) ودارت الرسل بين الطرفين لحس الموقف وانتهت باستئناف القتال بينهما. وكاد جيش علىَّ أن يحقق النصر، وحين أحسن جيش معاوية بالهزيمة رفع "عمرين العاص" المصاحف على أسنة الرماح طالبين بحكم القرآن الكريم، ولقيت هذه الدعوى هوىًّا من جماعة القراء في جيش علىَّ بن أبي طالب

(١) وهم أصحاب مصالح شخصية حيث أراد طلحة الولاية على اليمن والزبير أراد ولاية العراق ولكن رفض علىَّ تلبية رغباتهما. أما السيدة عائشة فتأثرت بموقف علىَّ منها في حادث الإفك حيث لم يدافع عنها..

(٢) انظر د/إبراهيم أحمد العدوى: تاريخ العالم الإسلامي ص ١٥٧:١٥٥ جـ ١ عصر البناء والانطلاق.

نفس الكأس: خروجاً سياسياً وحكماً اعتقادياً.

لذا اشتهر تعريفهم بأنهم هم الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب في حرب صفين، عندما دارت رحى الحرب واقترب النصر من عليّ وشيعة جاؤ معاوية ومن معه إلى خطة التحكيم فرفعوا المصاحف وقالوا: فيها حكم بيننا وبينكم، فوقع بعض شيعته في هذه المحادعة وخرجوا على عليّ في هذا الأمر^(١). وقد اختلف المؤرخون في تعين بدء خروجهم:

- ١— فيرى بعضهم أن ذلك كان عند قبول الإمام على أمر التحكيم^(٢)
- ٢— ويذهب فريق آخر إلى أن خروجهم كان بعد نتائج التحكيم^(٣)، والذي يبدوا لنا أن الخوارج كظاهرة سياسية ودينية متميزة. قامت على أثر موقعة صفين وما أسفروا عنها من قيام التحكيم ونتائجها بين الطرفين المتحاربين^(٤).

أسماؤهم:

- ١— سموا بالحرورية نسبة إلى بلدة حروراء التي خرجوا إليها غير بعيد عن الكوفة وتابعهم على يغى صلاحهم وقد كان حيث عادوا معه إلى الكوفة، ثم مالبثوا أن عاودتهم فكرة الخروج ظناً منهم أن علياً قد رجع عن الحكومة.
- ٢— كما عرفوا بـ "الحكمة" لأنهم قالوا قولتهم المشهورة (لأحكام إلا الله).

(١) صلاح أبو السعود: المرجع الكامل في الفرق ص ١٣١.

(٢) انظر ابن الجوزي: تلبيس أبيليس ص ٩٦.

(٣) انظر: أبو المعالي العلوى: بيان الأديان ص ٤٨ الترجمة العربية.

(٤) راجع في أمر الخوارج: الأسفرايني: التبصير في الدين ص ٢٦ وما بعدها تحقيق محمد الكوثري مكتبة الحاخامي ١٩٥٥م، الأشعري: مقالات الإسلاميين ص ١٥٦ وما بعدها، البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٥٥ وما بعدها، ابن حزم: الفصل ج ٢ ص ١١٣.

- أما وحدة المبدأ الذي تجتمع حوله هذه الحركات وهو المبدأ القائل بأن السلطان أو الحاكم لابد وأن يستأثر بالسلطتين الروحية والزمنية. وقد كانت الوجهة الدينية لهذا المبدأ مصدر الجدل المستفيض والتآويلات الجمة التي كانت تتحلّها وتترجم إلى الطوائف الثورية الإسلامية في مختلف العصور. تأييداً لخروجها على السلطة وعلى ما تستند إليه من تعاليم ومبادئ. وقد عرف المجتمع الإسلامي حركتين ثوريتين عظيمتين في دعوة الخوارج ودعوة الشيعة وكان انفجار هاتين الدعوتين فاتحة لسلسة طويلة من الحركات الثورية ومهدًا لطائفة كبيرة من الفرق التي قامت بأدوار هامة في التاريخ الإسلامي.

أولاً: التعريف بفرقة الخوارج^(١) وأسمائهم:

ليس صحيحاً ما يقال من أن الخارجي يعني المنسوب إلى المروق من الدين والخروج عليه. الخارجي هو: كمایری الشہرستانی^(٢) كل من خرج على الإمام الذي اتفقت الجماعة عليه، وابن كثير يصف الثنائيين على عثمان بـ(الخوارج) غير مرة أثناء تعرضه للفتنة^(٣). ويرجع الدكتور محمد البهی^(٤) ببناءة الخوارج إلى حادثة مقتل عثمان بن عفان ويدرك أنه قبل هذه الحادثة تكونت نواة أول حزب دینی إسلامی له رأيه الخاص. وإذا كان الخوارج الذين خرجوا على "عثمان" وجدوا في معسكر على مكافئهم، فقد أذاقوه - رضي الله عنه - من

(١) الفرق: هي اجتماع أناس متفرقين حول موقف ومبادئ فلسفة ونمط متعدد أو متقارب من أنماط التفكير، هي أمر مختلف عن الموقف الذي يتخذه فرد أو أفراد من قضية معينة، ثم يتغير هذا الموقف وتبدل إزاء مواقف الأفراد. لذا تعد الخوارج أولى الفرق؛ لأنها ارتبطت بل نبع من قضية مشاركة وقد جمعتهم فلسفة واحدة، وجموعة من المقالات والموافق، وأنماط متعددة أو متقاربة في السلوك ثم كان لهم استمرار في عصور الصراع الإسلامي حول هذه القضية التي سببت نشأتهم الأولى..

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٠٥.

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٨٩ وما بعدها.

(٤) الجانب الآلهي ج ١ ص ٤٤ وما بعدها.

٣— كما سوابـ (الشراه) أى: الذين يشروا أنفسهم ابتغاء مرضاه الله^(١).

ثانياً: حادثة التحكيم والنشأة:

اقترنت ظهور هذه الفرقـ بظهور الشيعة وذلك في عهد على وإن كانت فكرة الشيعة أسبق من آراء الخارجـ وذلك أنه لما اشتـ القـ بين على وعاوـية في صفين وكـتـ الدـ أن تدور على معاوـية التـ هذا الأـ إلى حـة تحـ كـ كتاب الله فـ أمر جـ بـ رفع المصـ على رـوس السـ لـ يـ حـكمـوا إـ القرآن فأـ صـ على استـ الـ، فـ خـ عن ذلك جـ مـ جـ تـ طـ بـ إـ أن يـ قبلـ التـ كـ فـ قـ بـ مـ ضـ، ولـ اـ تـ قـ معـ خـصـهـ أنـ يـ حـكـمـينـ كـ وـاحـدـ منـ جـهـةـ وـاخـتـارـ مـعاـوـيةـ "عـمـروـ بـنـ العـاصـ" أـرادـ علىـ أنـ يـخـتـارـ "عـبدـ اللهـ بـنـ العـباسـ" فـ حـملـهـ الـ خـارـجـ علىـ أنـ يـخـتـارـ "أـبـاـ مـوسـىـ الـأـشـعـرـىـ" ولـما اـشتـ فيـ التـ كـ سـاعـدـ مـعاـوـيةـ حـيـثـ عـزـلـ أـبـوـ مـوسـىـ عـلـيـاـ، ثـارـتـ الفـرـقـ الـ خـارـجـ علىـ التـ كـ وـطـلـبـتـ منـ عـلـيـ أـنـ يـتـوبـ مـنـهـ؛ لأنـهـ كـفـرـ بـتـحـ كـمـ كـمـ تـابـواـ هـمـ، وـقـالـواـ: (لاـ حـكـمـ إـ لـهـ) وـأـخـذـواـ يـقـاتـلـونـ عـلـيـاـ بـعـدـ جـدـالـهـ وـنـزـاعـهـ^(٢).

إـذـ فـحـادـثـ التـ حـكـمـ كـانـتـ الحـادـثـ الـ مـهـمـةـ فـ تـارـخـ إـسـلامـ. حيثـ ثـارـ هـذاـ التـسـاؤـلـ

(١) راجـ فيـ هـذـاـ الـأـمـرـ: مـصـطـفـيـ الشـكـعـةـ: إـسـلامـ بـلـاـ مـذـاهـبـ صـ ١٢٠ـ وـمـابـعـدهـاـ.

(٢) راجـ تـفـصـيلـ هـذـاـ الـأـمـرـ: مـحمدـ الطـاهـرـ الـبـيـفـرـ. أـهـمـ الفـرـقـ إـسـلامـ صـ ٥٧ـ، وـدـ/عـمـودـ إـسـمـاعـيلـ: الـحـركـاتـ السـيـاسـيـةـ صـ ١٥ـ وـمـابـعـدهـاـ. وـالـبـادـيـةـ وـالـنـهاـيـةـ لـابـنـ كـثـيرـ جـ ٦ـ صـ ٢٤٨ـ: ٢٤٢ـ. وـالـعـدـالـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ لـإـسـتـاذـ سـيدـ قـطبـ صـ ١٩٥ـ: ١٩٥ـ (وـبـرـغمـ أـنـ الـ خـارـجـ قدـ حـارـبـواـ عـلـيـاـ وـخـرـجـواـ عـلـيـهـ، فـانـ لـهـ فـيـهـ كـلـمـةـ حـقـ حـيـنـ قـالـ فـيـ آخرـ أـيـامـ: أـلـاـ نـقـاتـلـواـ الـ خـارـجـ بـعـدـ فـلـيـسـ مـنـ طـلـبـ الـحـقـ فـأـخـطـأـهـ كـمـنـ طـلـبـ الـبـاطـلـ فـأـدـرـكـهـ، وـأـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ يـشـرـ بـذـلـكـ إـلـيـ أـنـ الـ خـارـجـ أـشـرـفـ فـقـصـدـهـمـ مـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ؛ لأنـ الـأـمـوـيـنـ اـغـتـصـبـواـ الـ خـلـافـةـ اـغـتـصـابـاـ بـغـيرـ حـقـ، أـمـاـ الـ خـارـجـ فـكـانـواـ يـدـافـعـونـ عـنـ مـبـداـ سـيـاسـيـ مـسـتـبـطـ مـنـ عـقـيـدةـ دـيـنـيـةـ آمـنـواـ بـهـاـوـاـنـ أـخـطـأـواـ السـبـيلـ إـلـيـهـ).

كيفـ يـقـبـلـ الـخـلـيفـةـ وـهـوـ الرـئـيسـ الـدـينـيـ وـالـزـمـنـيـ لـلـمـؤـمـنـينـ أـنـ يـكـونـ هـنـاكـ حـكـمـ ماـ بـيـنهـ وـبـيـنـ عـاملـهـ الـثـائـرـ عـلـيـهـ؟ هـلـ كـانـ عـلـيـ يـشـكـ فـيـ شـرـعـيـةـ إـمامـتـهـ؟ وـهـلـ مـعـاوـيـةـ حـقـ فـيـ الـإـمامـةـ أـكـثـرـ مـنـ عـلـيـ؟ وـهـلـ كـثـرـ عـدـ الرـجـالـ وـالـسـلاحـ مـعـ مـعـاوـيـةـ تـخـولـهـ مـثـلـ هـذـاـ الـحـقـ؟ فـكـانـ الـمـسـأـلـةـ الـأـسـاسـيـةـ الـتـيـ عـرـضـتـ يـوـمـئـذـ كـانـتـ تـعـلـقـ بـأـسـاسـ السـلـطـةـ، وـهـنـاـ حـيـثـ كـانـتـ السـلـطـةـ تـشـمـلـ السـلـطـتـيـنـ الـدـينـيـ وـالـزـمـنـيـ مـعـ كـانـ السـؤـالـ مـنـ الـأـهـمـيـةـ بـجـيـثـ يـقـومـ عـلـيـ فـيـ رـأـيـ بـعـضـ الـمـؤـمـنـينـ أـسـاسـ مـنـ أـسـسـ الـعـقـيـدةـ^(١) وـهـذـاـ النـمـطـ فـيـ التـفـكـيرـ يـصـلـ بـنـاـ إـلـىـ النـقـطـةـ الـأـمـ وـهـىـ تـسـيـسـ هـذـهـ الـفـرـقـ مـنـ حـيـثـ النـشـأـةـ وـسـيـأـكـدـ ذـلـكـ مـنـ خـالـلـ تـأـمـلـنـاـ فـيـ أـهـمـ مـبـادـئـهـمـ وـأـصـوـلـهـمـ كـمـاـ يـلـيـ:

الإـمامـةـ وـالـخـلـافـةـ

١— فـقـدـ كـانـواـ يـرـوـنـ أـنـ الـخـلـافـةـ لـاـ يـبـغـيـ أـنـ تـنـحـصـرـ فـيـ قـوـمـ بـعـينـهـمـ، بلـ إـنـ كـلـ مـسـلـمـ صـالـحـ لـلـخـلـافـةـ مـاـدـاـمـ قـدـ تـوـفـرـتـ فـيـ شـرـوـطـهـ مـنـ إـيمـانـ وـعـلـمـ وـاسـتـقـاماـةـ، عـلـىـ شـرـيـطـةـ أـنـ يـبـاعـيـهـ النـاسـ بـذـلـكـ، وـلـابـأـسـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ أـنـ يـكـونـ مـنـ الـفـرـسـ أوـ الـتـرـكـ... فـالـمـعـنـىـ الـعـصـىـ الـأـرـسـتـقـراـطـيـ بـعـدـ تـفـكـيرـهـمـ، بلـ عـدـوـ لـنـهـجـهـمـ وـمـسـلـكـهـمـ^(٢).

٢— كـمـاـذـهـبـواـ إـلـىـ إـنـهـ إـذـاـ مـاـ اـخـتـارـ الـأـمـةـ رـئـيـساـهـاـ وـبـايـعـتـهـ فـيـ إـنـ هـذـاـ الرـئـيـسـ بـعـدـ قـبـولـهـ هـذـهـ السـلـطـةـ وـتـسـلـمـهـ زـمـامـهـ، لـمـ يـعـدـ يـحقـ لـهـ أـنـ يـتـخلـىـ عـنـهـ، لـأـنـهـ وـدـيـعـةـ مـقـدـسـةـ فـيـ عـنـقـهـ، كـمـ أـنـهـ لـاـ يـحقـ لـهـ أـنـ يـقـبـلـ التـحـكـمـ، إـذـ أـنـ فـيـ قـبـولـهـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ أـنـهـ يـشـكـ فـيـ شـرـعـيـةـ السـلـطـةـ الـمـنـتوـحةـ لـهـ مـنـ قـبـلـ الـأـمـةـ، وـمـادـاـمـ الـإـمـامـ يـعـمـلـ وـفقـ سـنـةـ الـلـهـ الـمـعـبـرـ عـنـهـ

(١) راجـ: نـصـرـبـنـ مـزـاحـمـ، وـاقـعـةـ صـفـينـ صـ ٥١٧ـ: ٥٢١ـ، تـحـقـيقـ عـبـدـالـسـلـامـ هـارـونـ طـ الـقـاهـرـةـ ١٣٨٢ـ.

(٢) انـظـرـ مـصـطـفـيـ الشـكـعـةـ: إـسـلامـ بـلـاـ مـذـاهـبـ صـ ١٢٩ـ، وـفـلـهـاـوـنـ: الـخـارـجـ وـالـشـيـعـةـ صـ ٣٠ـ: ٣٩ـ طـ ١٩٥٨ـ.

رأيهم في الخلفاء المتقدمين:

يتبين الخوارج ويولون خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وكذلك خلافة عثمان قبل أن يحدث الأحداث التي حدثت في السنوات الست الأخيرة من عهده، وأيضاً خلافة على بن أبي طالب قبل القبول "بالتحكيم". أما السنوات الأخيرة لعثمان فإنهم يبرءون منه، وأما على بعد التحكيم فإنهم يكفرون به^(١) كذلك يبرؤن من خصوم على سواء منهم أصحاب "موقع الجمل" أو معاوية بن أبي سفيان ومن والاه.

رأيهم في الإمامة:

يقف الخوارج مع الرأى القائل بأن "الاختيار والبيعة" هما الطريق لنصب الإمام^(٢). وعندهم أيضاً كون الإمامة من الفروع، فليست من أصول الدين خلافاً للشيعة ولذلك قالوا إن مصدرها هو الرأى وليس الكتاب والسنة^(٣).

ـ حتى في أحد أصولهم الذي قد يظهر من النظر إليه من أول وله أنه دين وليس سياسياً وهو: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بحد موقف الخوارج قد تميز عن بعض الذين قالوا بهذا الأصل من أهل السنة وأصحاب الحديث: ذلك أن الخوارج قد جعلوا لهذا الأصل صلة وثيقة بالفكر السياسي والتغيير للظلم والجور الذي طرأ على المجتمعات، كما جعلوا

(١) فالبعض يكفره كفر شرك في الدين، والبعض الآخر يقول إنه كفر نعمه فقط أي جحود للنعم الإلهية المتمثلة في واجبات الخلافة على أمير المؤمنين.

(٢) ومن ثم فهم أعداء لل الفكر الشيعي القائل: إن الإمامة شأن من شئون السماء لا اختصاص فيها للبشر وإن السماء قد حددت لها أئمة بنو آدم، نصت عليهم وأوصت بما لهم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم أعداء كذلك لمن زعم من السنة أن النص والوصية والتعيين قد سبقت من الرسول صلى الله عليه وسلم بمامدة أبي بكر مثل فرقة البدارية.

(٣) راجع الأشعري: مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٠٣: ٢٠٦، وشرح فتح البلاغة جـ ٥ ص ١١٤: ١١٩.

ففي القرآن فهو الرئيس الشرعي للأمة، وإذا ما خالف هذه السنة فيكون من حق الأمة فقط خلعه^(٤).

رأيهم في الثورة:

وعلى هذا الأساس لم يستطع الخوارج أن يقرروا بالتحكيم الذي قبله على وهو الرئيس الذي بايته الأمة، كما وإنهم لم يقرروا بموقف معاوية العدائي على رئيسه الشرعي وكان لابد لهم لكي يدعموا ثورتهم على على وجوبهم إلى القوة من دعائم قائمة على الشرع فسروها كما يأتي:

ـ لقد دنس على السلطة المنوحة له من قبل الأمة مصدر السلطة وذلك حينما قبل التحكيم.

ـ ثم أنه في قبوله التحكيم تغافل عن الحقيقة القائلة أن (لا حكم إلا لله) فالرئيس الذي لا يستطيع أن يصون الوديعة التي أودعته إياها الأمة هو رئيس كافر ويستحق حينئذ المقاتلة "جهاداً"ـ ومن هنا انفردوا برأى سياسي في الثورة حيث كان قولهم: وجوب الخروج والثورة على أئمة الجور والفسق والضعف^(٥).

(١) إن تعليل الخوارج هنا لأساس شرعية السلطة إنما يتفق تماماً والنظرية الديمقراطية القائلة أن الأمة هي مصدر السلطة. فلا يشترط في الإمام أن تربطه قربة برسول الله، بل يكفيه إجماع الأمة حتى لو كان عبداً جبشاً وهذا سابقة في فلسفة الحكم العربي الإسلامي لم يسبق لها مثيل في المجتمع العربي الإسلامي الأول ولعلها التطبيق الأول لروح فلسفة الإسلام في هذا المقام.

(٢) عندهم أن الخروج يجب إذا بلغ عدد المنكرين على أئمة الجور أربعين رجلاً ويسمون هذا بـ "حد الشراء" أي: الذين أشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم ولا يحمل لهم القعود إلا إذا نقص العدد عن ثلاثة رجال فإن كان هذا جاز لهم القعود ويسمى هذا "مسلك الكتمان" وهناك "حد الظهور" وذلك عند قيام دولتهم تحت قيادة "إمام الظهور" وهناك "حد الدفاع" وهو التصدي لهجوم الأعداء راجع الأشعري: مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٤ القاهرة ١٩٦٩ م.

وفقاً لأوامر الله ونواهيه، كما أن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها، فضلاً عن أنها منافية للمدنية وقوفهم (لتكن عدالة ولو فنت الدنيا بأسراها) وهو أمر لم يكونوا يجهلونه إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض وإنما يرثون أن عموداً مجاهدين^(١).

وفي نهاية الأمر لم يتبق إلا القول بأن الخوارج قد أظهروا نشاطهم الحربي والسياسي على مسرح الدولة الإسلامية فترة طويلة من الزمان وخاضوا المعارك في كل شبر منها تقريراً ومع انقسامهم وتناحرهم^(٢) فقد أمكن لهم أن يصمدوا على المسرح الحربي حتى أوائل القرن الثاني الهجري، حيث تمكنا من فرض سلطتهم على مساحات واسعة من أرض الدولة الأموية وكان أمراً طبيعياً أن ينقسم الخوارج على أنفسهم في الوسائل التي يتبعونها لكي يصلوا إلى أهدافهم السياسية في الحكم، غير أن هذا الخلاف الفكري السياسي ما لبث - أيضاً - أن دفع بهم إلى خلاف عقائدي في صلب الدين، فمزجو الدين بالسياسة وخلطوا بين الحكم والعقيدة^(٣). فكانوا بمثابة نقطة تحول في الماهية والطبيعة التي أضيفت على الصراعات التي حفلت بها حياة العرب المسلمين.

وزادت الطامة عندما استخدم خصومهم ذات السلاح، فأصبحت سائر فرق الإسلام تقريراً، تضفي على مبادئها السياسية وأرائها الفكرية صبغة من الدين وعقائده انسياقاً مع

(١) انظر فلهاؤزن ص ٤٥.

(٢) وقد كان الخوارج منتقدين على أنفسهم إلى ثمان فرق كبيرة، وكانت كل فرقة من هذه الفرق تنقسم بدورها إلى فرق أصغر مما أدى إلى إضعاف شأنهم والقضاء عليهم.

(٣) وذلك عندما زعموا أنهم هم المؤمنون، وأن من عداهم قد مرق من الدين مروق السهم من قوسه وعندما نسبوا إلى على - رضي الله عنه - الخطيبة بدلاً من الخطأ، وحينما أعلنوا عدم الصلاة وراءه... وهذا الغلو الذي نشأ مع الخوارج مازال يعاني منه العقل العربي المسلم ومجاهد جنده حتى الآن.

قضية استخدام السيف أداة أصلية وسبباً رئيسياً من أدوات النهي عن المنكر وسبل التغيير للفساد^(٤).

ولقد كانت هذه الأفكار وأصولهم في السياسة، عناصر مذهب وفلسفة في الحكم أثارت الجدل الفكري والصراع السياسي الذي بلور فرق الإسلام الأولى في القرن الأول الهجري وبالذات تلك الفرق التي نشأت نشأة سياسية وفي مقدمتها المرجنة والمعزلة والشيعة والخوارج - كما رأينا^(٥) حرياً ثورياً يعتمد بالتقوى. لم ينشأوا عن عصبية العروبة بل عن الإسلام، وكانوا ينتسبون إلى حذاق التقوى الإسلامية وهم القراء.

- وهم يعتقدون أن الاتجاه السياسي على الأرض يقرر المصير في السماء إلى النعيم أو إلى الجحيم، وتحت اللواء الذي يحارب المرء باسمه يمثل - أيضاً - أمام الله. فالإمام إمام في الدنيا والآخرة في الحياة وبعد الموت وبقدر ما في مركز الإمام من خطورة تكون الصعوبة في اختيار من يصلح له في نظر الخوارج^(٦).

ما تقدم يمكن القول بأن الخوارج قد عبروا من الناحية السياسية عن اتجاه الجناح الديمقراطي بين الأحزاب الإسلامية الأخرى. وفي قوفهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضارتهم على الثورة على أئمة الجور مما يجعلهم جديرين بلقب "ثوريو الإسلام"^(٧).

وعلى الرغم من كون مذهبهم سياسي الأصل والنشأة إلا أن هدفه تحرير الأمور العامة

(١) انظر المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٣:٢٠٦.

(٢) وقد اخترت لفظ "حزب" بدلاً من لفظ "فرقة" لما تمقته كلمة حزب من الدلالة على المعنى السياسي أكثر منها دلالة على المعنى الديني.

(٣) فلهاؤزن: أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة) ترجمة من الألمانية د/عبدالرحمن بدوى ص ٤٣ الناشر وكالة المطبوعات.

(٤) انظر محمود إسماعيل: الحركات السرية ص ١٦.

ب - ذهب أنصار علىٰ - أيضاً - إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي وضع بذرة التشيع، وأن الشيعة ظهرت في عصره^(١).

ج - ذهب البعض إلى أن التشيع ظهر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نشأ بين كبار الصحابة منذ بدأت مشكلة الخلافة، حيث ظهرت جماعة لم تتوافق على الطريقة التي انتخب بها الخلفاء الثلاثة الأول، الذين لم يراع في انتخابهم درجة قربتهم من أسرة النبي. وقد آثرت هذه الجماعة "علىٰ بن أبي طالب" ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة، ولم تجد هذه الجماعة الفرصة مواتية لتجاهر برأيها في هذا الصدد إلا في عهد عثمان الذي انتهج سياسة ثابتة وهي تفضيل أقاربه من بنى أميه فأناتحت هذه السياسة لأنصار علىٰ الفرصة لتحويل الخلافة لآل البيت^(٢).

د - وهناك قول يرجع بداية التشيع بعد مقتل عثمان، وأول من وضع بذرته هو "عبد الله بن سبأ" اليهودي رأس الطائفة السبئية وأول واضح لبذور الفتنة في زمان علىٰ^(٣)

هـ - قول يرجع التشيع إلى موقعة صفين (٦٥٨هـ-١٣٧هـ)^(٤).

(١) انظر القمي المقالات والفرق ص ٥، والنويختي فرق الشيعة ص ١٧، ومحمد حسين آل كاشف العطا أصل الشيعة ص ٤٣ و محمد جواد الإثنى عشرية وأهل البيت ص ٢٩ (وهذا الرأي مطعون فيه وقد مالوا إليه عندما أرجع بعض العلماء المسلمين التشيع إلى مصدر أجنبي فارادوا أن يردوا هذا القول وإعطاء التشيع صفة الشرعية ودللوا على ذلك بنقول مطعونه وموضعه . انظر: ابن خلدون المقدمة ص ٥٢٧).

(٢) انظر النويختي فرق الشيعة ص ٣ ، و محمد عبدالله عنان: تاريخ الجمعيات السرية ص ١٣ وأحمد أمين فجر الإسلام ص ٢٦٦ (وللرد على هذا الرأي راجع ابن تيمية منهاج السنة ج ١ ص ٣٦ و ج ٤ ص ١٣٨:١٣٨، والجوبين في الإرشاد ص ٤٢٨).

(٣) انظر الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٨٦، البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٢٣، الإسفرايني التبصير في الدين ص ٧٢:٧١، والقمي المقالات والفرق ص ٢٠.

(٤) انظر مختصر التحفة الثانية عشرية ص ٥.

تيار سلطان العقيدة الدينية الجارفة حينها، وتملقاً لل العامة واستحلاباً لتأييدها في أغلب الأحيان، فانطبع خلافات الساحة الإسلامية بالطابع الديني عندما انتقل الجميع بما هو "سياسي" إلى ساحة ما هو "ديني" كما سيتأكد ذلك فيما هو آت.

فرقة الشيعة والنشأة السياسية:

أولاً: التعريف بالفرقة:

الشيعة في اللغة هم الأتباع والأنصار^(١)، فإذا قلنا شيعة فلان كانقصد من ذلك أعنوانه وأنصاره. ويطلق هذا اللفظ في عرف الفقهاء والمتكلمين على اتباع علىٰ بن أبي طالب وبنيه^(٢) ومرور الزمن وتقادمه ازداد حماس المؤمنين على وأبنائه وأحفاده كائنة على المسلمين من حقهم الولاية والريادة والإمامية.

ثانياً: بداية التشيع والأراء المتعددة حول ذلك:

ـ ذهب البعض إلى أن التشيع قدم ولد قبل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ما من نبي إلا وقد عرض عليه الإمام بولاية علىٰ وقد وضعوا حول هذا الأمر أساطير كثيرة لإثباته^(٣).

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة "شاع".

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٧ طبع على عبد الواحد وافي، وابن النديم في الفهرست ص ١٧٥ طبع ليبرج.

(٣) انظر الكليني أصول الكاف ج ١ ص ٤٣٧، والخلصي/البحار ج ١١ ص ٣٥ وج ٢٦ ص ٢٧٨. (والرد على هذا الرأي لا يحتاج إلى مجهد حيث إن فساده وبطلانه من الأمور المعلومة بالضرورة وكتاب الله بين أيدينا ليس فيه شيء من هذه المزاعم. حيث كانت دعوة الرسل إلى التوحيد لا إلى ولادة علىٰ والأئمة كما يفترضون (انظر الأنبياء ٢٥، النحل ٣٦، الأعراف ٦٥:٥٩، راجع أيضاً: البحاري كتاب الإيمان، ومسلم كتاب الإيمان بباب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ج ١ ص ٥٢:٥ انظر أيضاً: ابن تيمية في منهاج السنة ج ٤ ص ٦٤).

الشديدة وبالنادرة بثأر الحسين^(١) ومن الواضح الاختلاف حول مرامي التشيع هل هو مرمى ديني خالص أم أن التشيع فكرة سياسية خالصة أم هو وجдан عاطفي محض؟ وإن كنت هنا أرى تجمع كل هذه الأسباب والدوافع وراء فكرة التشيع فإني أغلب رجوع النشأة إلى كونها فكرة سياسية خالصة وذلك للحجج الآتية:

أ - فحق الأقربين في وراثة الرئاسة أمر لا يقره الإسلام، والحديث يقول: إن الأنبياء لا يورثون، ولو شاء الله يجعل محمد ولداً وهو الرسول الذي اصطفاه واجتباه، والذين بايعوا علياً بإمارة المؤمنين لم يبايعوه لأنه رمز ديني، أو لأنه وصي النبي بل لأنهم رأوا أنه أحق المسلمين بولاية أمر المسلمين، تماماً كما رأى المسلمون السابقون أحقيته أبي بكر بالخلافة فبايعوه ومن بعده عمر ثم عثمان.

فالشيعة إذن لم يكونوا أول الأمر فرقة دينية، بل فكرة سياسية تعبر عن رأي سياسي في أن علىّ بن أبي طالب أحق بالخلافة من معاوية، حيث لم يكن معاوية جاداً حينما غضب لقتل عثمان، بل اتخذ هذا القتل ذريعة لتعكير الجو في وجه علىّ حتى تحيط الفرصة في نيل الخلافة^(٢).

فانتصار المسلمين علىّ كان انتصاراً سياسياً ولم يكن انتصاراً دينياً، فعلىّ أحق بالخلافة في نظرهم لفضله وعلمه وحكمته وسابقته في الإسلام، ثم أخيراً لأنه ابن عم النبي وصهره. وكثير من مؤيدي علىّ المتصررين له حتى بعد وفاته لم يكن انتصارهم له أكثر من انتصار لمبدأ الخلافة واعتباره أميراً على المؤمنين وليس إماماً للمسلمين على التحول الذي

(١) تاريخ الأدب في إيران جـ ١ ص ٣٣٣ من الترجمة الفارسية نقلًا من د| محمد السعيد جمال الدين ص ٧ دولة الإمامية في إيران ١٩٧٥ م الناشر مؤسسة سجل العرب.

(٢) وليس ثمة شك في أن معاوية كان حسن الحظ حتى واته الخلافة بهذا الشكل الذي نعرفه في كتب التاريخ، فمعاوية قد اغترم في موقعة صفين، بغض النظر عن مهزلة التحكيم نستطيع أن نقول إنه لو لا مقتل على ما صارت الخلافة إلى معاوية ولا تربع على عرشهما أموى واحد.

ن - وقول يرى بأن التشيع ولد إثر مقتل الحسين^(١). الرأى المختار بأن التشيع لفكر وعقيدة لم تولد فجأة بل إنها أخذت طوراً زمنياً ومرت بمراحل ولكن طلائع العقيدة الشيعية وأصل أصولها ظهرت على يد السبئية باعتراف كتب الشيعة^(٢).

ثالثاً: النشأة السياسية للتشيع والتدليل على ذلك:

على الرغم من المظاهر الدينية التي اتخذه التشيع في مراحله الأولى، إلا أنه كان ينطوي على غرض سياسي محض^(٣). فلم يختلف أنصار علىّ عن سائر الأمة من حيث المعتقدات الدينية بوجه من الوجوه، كما كانت هذه الجماعة من أنصار علىّ عربية خالصة لم تحاول أن تكسب تأييد الأجناس التي خضعت للعرب ودخلت الإسلام غير أن الوضع اختلف بعد مقتل علىّ فقد بدأ الشيعة في عهد الخلافة الأموية يتجهون في حركتهم اتجاهها دينياً^(٤)، وارتکروا في معارضتهم للأمويين وغيرهم على موضوع الخلافة. ولقد كانت موقعة (كربلاء ٦١٥هـ) هي أول وأقوى دافع لتحول التشيع إلى ذلك الاتجاه الديني؛ ففضلاً عن المظاهر العاطفية الذي اكتسبه الاتجاه الجديد بمحده قد اصطبغ بلون من ألوان الحماسة

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ١٤ ص ٥٩.

(٢) انظر القسى المقالات والفرق ص ٢١، النوخجي فرق الشيعة ص ٢٣، البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٣٦ (ومما ينبغي أن يلاحظ أن ربط نشأة التشيع بابن سباء هو في التشيع المتضمن لهذه الأصول الغالية أما التشيع المتوسط والذي مضمونه تفضيل على ونحو ذلك فلم يكن هذا من إحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص والعصمة فإن الذي ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً ابن تيمية: مجموعة الفتاوى جـ ٢٠ ص ٤٦٦.

(٣) انظر لفان فلوتون السيادة العربية ص ٦٨ وما بعدها، وجولديز يهير العقيدة والشريعة ص ١٦٨، وبرنارد لويس أصول الإمامية ص ٨٣ مترجم.

(٤) انظر فان فلوتون ص ٧٣، وجولديز يهير ص ١٧٤: ١٧٦.

ب- وهناك برهان آخر يويد القول بأن التشيع بدأ مذهبًا سياسياً وليس عقيدة دينية ذلك هو إجماع الفرس - ولايزالون حتى اليوم - على التشيع لآل علىٰ والمنطق في ذلك أن الفرس يعتقدون أنهم أنسباء الحسين لأنه تزوج (شهربانو) ابنة يزدجرد بعد أن وقعت أسرة في أيدي المسلمين، ولقد انجحت علياً زين العابدين رضي الله عنه - إذن فهم أنجحوا على^(٢).

فتشيعهم والحال كذلك لايمكن أن يقال إنه تشيع عقيدة خالصة، بل هو أقرب إلى تشيع العصبية، وتشيع العصبية يساوى تشيع السياسة ففكرة التشيع من ناحية الفرس على الأقل فكرة سياسية خالصة^(٣).

واستكملاً للصورة السياسية عندما نظروا إلى جميع الخلفاء - ما عدا علياً - على أنهم مغتصبين للحكم لا تجحب لهم طاعة، وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية. فكانوا في الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهاية إلى ثروات سادهم^(٤)

وهناك رأى يلقى تأييداً من جانب بعض الباحثين المحدثين من الإيرانيين يذهب إلى أن الفرس اعتنقاً التشيع للمحافظة على كيافهم القومي من الضياع في مواجهة طغيان الخليفة

(١) اختلف حول حقيقة شخصيته وتاريخ حياته وعقائده فمن الباحثين من أنكر وجوده ومنهم من خلط بينه وبين إبراهيم عليه السلام ومنهم من رأى أنه شخص آخر (انظر: حامد عبد القادر: ذردشت الحكم ص ٢٥ سلسلة قادة الفكر الكتاب الأول نهضة مصر ١٩٥٦ وترجم المراجع العربية أنه ولد حوالي ٦٦٠ ق.م.) ومات (٥٨٣ ق.م.) ويتفق المؤرخون على أنه ولد في الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطئ نهر يسمونه في الكتاب الموسوي "داريزا" وهو مؤسس الديانة الزرادشتية القائمة على الثانية في التالية. (انظر حبيب سعيد اديان العالم ص ١٥ صدر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ١٩٧٧م).

(٢) هو الفيلسوف "مزدك" الذي ظهر في فارس في عهد الملك "كيمباد" وهو يقول: بالكتوبين الأصلين (النور) ويفعل بالقصد والاختيار. (والظلمة) وتفعل على الخبط والاتفاق (انظر/ محمد خليفة تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة ص ١٧٤ ط ١٩٩٦م).

(١) انظر قصة حجر بن عدى الكندي والمغيرة بن شعبة الثقفي الذي كان والياً على الكوفة من قبل معاوية مصطفى الشكعة إسلام بلا مذاهب ص ١٧٣.

(٢) وسواء حدث هذا الزواج أم لم يحدث فالشيعة الفرس يقبلونه كحقيقة تاريخية . ومن أوائل المؤرخين الذين أشاروا إليه اليعقوبي (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٨ طبع التحف).

(٣) انظر/ برازون في تاريخ أدبيات إيران ج ١ ص ٢١٧ نقلًا عن إحسان إلهي ظهير السنة والشيعة ص ٥٥ دار عمار للنشر عمان.

(٤) انظر يوليوس فلهوزن أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام ص ٢٤٠ ترجمة عن الألمانية / عبد الرحمن بدوى ١٩٥٨م.

نبع التشيع^(١).

فكما ذكرت سابقاً بأن فكرة التشيع على أقل تقدير - لدى الفرس كانت فكرة سياسية خالصة بعيدة تماماً عن قنوات الدين والعقيدة وما أرتدت لبوس الدين إلا تملقاً أو مخادعة أو ل تستفيد بسلطان الدين الجارف والمسيطر خاصة في هذه الآونة.

جـ: وهناك دليل آخر يزاحم السابق في كون الشيعة بدایة ونشأة كانت سياسية صرفه بعيدة كل البعد عن أمر الدين والعقيدة وهو استغلال "عبد الله بن سبا"^(٢) لتلك الفرقـة اسماً ومغزى حيث أراد ابن سباً هذا مزاجمة هـذا الدين بالتفاق والتظاهر بالإسلام لأنـه عـرف هو وذوـوه أنه لا يمكن محـاربته وجـهاً لوجهـ ولا الوقوف في سـبيلـه جـيشـاً جـيشـ فـخطط هو ويهـود صـنـاعـة خـطـة أـرسـلـ آثـرـها هو وـرفـقـته إـلـيـ المـدـيـنـةـ فـعـصـرـ كانـ يـحـكمـ فـيـهـ صـهـرـ رـسـولـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـصـاحـبـهـ ذـوـ النـورـينـ عـثـمـانـ بـنـ عـفـانـ فـدـأـواـ يـسـطـونـ جـبـائـلـهـمـ مـنـظـرـينـ الـفـرـصـ الـمـتوـاطـةـ وـمـتـرـقـيـنـ الـمـوـاقـعـ الـمـلاـئـةـ وـجـعـلـوـاـ عـلـيـهـ تـرـسـاـ لـهـ يـتـلوـنـهـ يـتـشـيـعـونـ بـهـ وـيـتـظـاهـرـونـ بـجـهـ،ـ وـأـخـذـواـ يـشـوـنـ فـيـ نـفـوسـ الـمـسـلـمـينـ سـمـومـ الـفـتـنـةـ حـمـرـضـيـنـهـمـ عـلـىـ خـلـيـفةـ رـسـولـ اللـهـ عـثـمـانـ.

ومن هنا تكونت طائفة وفرقة في المسلمين للإضرار بالإسلام وسمـت نفسها(الشيعة على) ولاعـلاقـةـ لهاـ بـهـ،ـ وـقـدـ تـبـأـ منـهـمـ وـعـذـبـهـمـ أـشـدـ العـذـابـ فـيـ حـيـاتـهـ،ـ وـأـبغـضـهـمـ بـنـوـهـ

وأولاده من بعده، وذلك حينما أمر بإحرق أولئك الذين أدعوا فيه الألوهية^(١).

أما في شأن السببية الذين يسبون أبياً بـكـرـ وـعـمرـ فإنـ عـلـيـاـ لما بلـغـهـ ذلكـ طـلـبـ ابنـ السـوـدـاءـ الذـىـ بلـغـهـ ذـلـكـ عـنـهـ،ـ وـقـيلـ إـنـهـ أـرـادـ قـتـلـهـ فـهـرـبـ منهـ،ـ وـأـمـاـ المـفـضـلـةـ الذـىـ يـفـضـلـونـهـ عـلـىـ أـبـىـ بـكـرـ وـعـمرـ فـرـوـيـ عـنـهـ أـنـهـ قـالـ "لـأـوـتـىـ بـأـحـدـ يـفـضـلـنـهـ عـلـىـ أـبـىـ بـكـرـ وـعـمرـ إـلـاـ ضـرـبـتـهـ حـدـ المـفـرـىـ"^(٢).

ولكن ماتلا ذلك من أحداث هـيـاـ جـوـاـ صـالـحاـ لـظـهـورـ السـبـبـيـةـ بـغـلـوـهـاـ وـمـثـلـهـاـ فـيـ جـمـاعـةـ وـذـلـكـ كـمـعـرـكـةـ صـفـينـ،ـ وـحـادـثـ التـحـكـيمـ الـتـىـ أـعـقـبـتـهـاـ وـمـقـتـلـ عـلـىـ الـحـسـينـ.ـ فـكـلـ هـذـهـ الـأـحـدـاثـ دـفـعـتـ الـقـلـوبـ إـلـىـ التـشـيـعـ لـآلـ الـبـيـتـ،ـ فـتـسـلـلـ الـفـكـرـ الـوـافـدـ مـنـ نـافـذـةـ التـشـيـعـ لـعـلـىـ وـآلـ بـيـتـهـ،ـ وـصـارـ التـشـيـعـ وـسـيـلـةـ لـكـلـ مـنـ أـرـادـ هـدـمـ الـإـسـلـامـ مـنـ مـلـحـدـ وـمـنـافـقـ وـطـاغـوتـ،ـ وـدـخـلـتـ إـلـىـ الـمـسـلـمـينـ أـفـكـارـ وـمـعـقـدـاتـ أـجـنبـيـةـ اـكـسـتـ بـثـوـبـ التـشـيـعـ وـتـيسـرـ دـخـولـهـاـ تـحـتـ غـطـائـهـ،ـ وـعـرـورـ الـأـيـامـ كـانـتـ تـسـعـ الـبـدـعـةـ وـيـتـعـاظـمـ خـطـرـهـاـ حـيـثـ وـجـدـ لـاـبـنـ سـبـاـ خـلـفـاءـ كـثـيرـونـ.

ويؤكـدـ أـمـرـ النـشـأـةـ السـيـاسـيـةـ اـسـتـعـرـضـنـاـ لـأـمـمـ الـمـبـادـيـءـ الـتـىـ تـقـومـ عـلـيـهـاـ فـرـقـةـ الشـيـعـةـ وـالـتـىـ تـدـورـ جـمـيعـهـاـ فـيـ رـحـيـ السـيـاسـةـ نـشـأـةـ وـاـحـضـانـاـ.ـ حـيـثـ كـانـتـ الشـيـعـةـ رـدـ فـعـلـ طـبـيعـيـ لـمـسـأـلـةـ إـلـاـمـةـ أـىـ السـلـطـةـ مـنـ أـحـقـ بـهـ؟ـ وـكـيـفـيـةـ الـحـصـولـ عـلـيـهـاـ؟ـ حـيـثـ ذـهـبـتـ الشـيـعـةـ إـلـىـ القـوـلـ بـأـنـ الـإـمـامـ يـقـومـ بـعـهـمـةـ دـيـنـيـةـ،ـ مـفـوضـاـ مـنـ قـبـلـ اللـهـ،ـ وـذـلـكـ تـمـاـمـاـ مـثـلـ الـمـهـمـةـ الـتـىـ يـقـومـ بـهـ الرـسـوـلـ،ـ فـلـيـسـ الـأـمـةـ هـىـ الـتـىـ تـقـوـضـ إـلـيـهـ الـقـيـامـ بـهـذـهـ الـمـهـمـةـ وـإـنـ اللـهـ هـوـ الـمـصـدـرـ الـحـقـيقـىـ

(١) انظر ابن تيمية منهاج السنة جـ ١ ص ٢١٩ تحقيق دـ محمد رـشـادـ سـالمـ،ـ وـالـإـسـفـراـيـلـيـنـ فـيـ التـبـصـرـ فـيـ الدـينـ صـ ٧٠.

(٢) المرجـعـ السـابـقـ جـ ١ ص ٢١٩:٢٢٠ انـظـرـ أـيـضاـ الحـسـينـ عـبـدـ اللـهـ فـيـ الـجـذـورـ التـارـيـخـيـةـ للـنـصـرـيـةـ العـلـوـيـةـ صـ ٢٠ـ وـمـاـبـعـدـهـاـ دـارـ الإـعـتـصـامـ.

(١) دـ محمدـ السـعـيدـ جـمالـ الدـينـ:ـ دـولـةـ الـإـسـمـاعـيلـيـةـ فـيـ إـيـرانـ صـ ١١ـ (وـإـنـ وـجـدـ مـنـ تـحـفـظـ عـلـىـ هـذـاـ الرـأـيـ وـلـمـ يـسـلـمـ بـهـ انـظـرـ:ـ مـرـوـجـ الـذـهـبـ لـالـمـسـعـودـيـ جـ ٢ـ صـ ٤٣٠ـ طـبـ بـولـاقـ).

(٢) انـظـرـ الـحـدـيـثـ عـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ سـبـاـ مـفـصـلـاـ لـدـىـ إـحـسانـ إـلـيـ ظـهـيرـ:ـ الـسـنـةـ وـالـشـيـعـةـ صـ ١٨ـ وـمـاـبـعـدـهـاـ عـلـقـ عـلـيـهـ عـبـدـالـسـمـعـيـعـ حـمـودـ دـارـ عـمـارـ لـلـتـشـرـعـمـانـ،ـ وـكـيـفـيـةـ رـجـالـ الـكـشـىـ صـ ١٠١ـ طـ مـؤـسـسـةـ الـأـعـلـىـ وـالـطـبـرـيـ فـيـ تـارـيـخـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـمـ جـ ٥ـ صـ ٩٠ـ طـ مـصـرـ.

اغتصبوا الحكم في أثناء غيبة الإمام وفرضوا أنفسهم فرضاً فعل الشيعي حينئذ أن يخضع لهؤلاء المغتصبين إلى أن يعود إمامه وهو ما يسمى بعبدًا أو عقيدة (التنمية) لديهم.

مما يلاحظ بأن تكاثر شيعة على كانت لأسباب عديدة، أخطرها وأقواها أسباب سياسية صرفه وأدناها حالاً وإن وجدت الأسباب الدينية. حيث رأينا تكاثر شيعة على عندما نقم الناس على عثمان في السنوات الأخيرة من خلافته فتشريع له قوم إيماناً بأحقية على للخلافة، وتشريع له قوم كرهو الحكم الأموي ثم العباسى لظلمهم فيه أو لتعصب فريق من العرب للأمويين فكان العداء يقتضى أن يكون خصومهم في الجانب المقابل.

- وتشيع كثير من الموالي؛ لأنهم رأوا أن الحكم الأموي حكم مطبوع بالأستقرائية العربية فانضموا إلى من عادهم ولا أعدى لهم من الشيعة.

- وتشيع قوم من الفرس - خاصة - لأنهم منروا أيام الحكم الفارسي على تعظيم البيت المالك فلما دخلوا الإسلام نظروا للنبي صلى الله عليه وسلم نظرة كسروية ونظروا إلى أهل بيته نظرهم إلى البيت المالك.

- وتشيع آخرون؛ لأنهم أرادوا الانتقام من الإسلام فتظاهرروا بالغلو فيه خديعة ومكرًا... وغير ذلك من أسباب أن تعددت وكثرت إلا أنه يلاحظ من خلالها بأن التشيع بانتفاضاته كانت بمثابة ثورات سياسية واجتماعية اتخذت لبوساً دينياً ليس إلا.

فرقة المرجئة:

أولاً: التعريف: الإرجاء على معندين أحدهما يعني: التأخير كما في قوله تعالى: "قالوا أرجأه وأخاه" ^(١) أي: أممه وأخره. والثانى: يعني الرجاء،

ويصبح إطلاق اسم المرجئة على هذه الجماعة بالمعنى الأول؛ لأنهم كانوا يؤخرن العمل

(١) الأعراف: ١١١.

للسلطة، فالله لدى الشيعة هو الذي يختار الإمام^(١) ويستودعه ما أوصى به إلى الرسول، فالحقيقة الموصى بها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أصبحت وديعة مقدسة لا تصح أن تكون ملكاً عاماً للأمة. وترى الشيعة بأن الله أمر الرسول أن يذكر اسم هذا الشخص الذي سيخلفه فترى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل بما بلغت رسالته»^(٢) والمقصود هنا - حسب تأويلات الشيعة - هو أن يقول أن علياً سيكون الإمام من بعده^(٣).

- كما زادوا الأمر بالقول بعصمة هذا الإمام بناء على مبدأهم السابق وجميع فرق الشيعة تسلم بذلك المبدئ ولكنهم لا يتفقون جميعاً على شخص الإمام^(٤).

ثم يلاحظ أن معظمهم متافقون على أن الإمامة وراثية في سلالة على^(٥) وختلفوا بعده كما أنهم متافقون على كون الإمامة حق إلهي، وكون الإمام معصوماً حتى في حالة غيته الذي أفرزت لنا القول (بالرجوعة) وبمبدأ التقيه التي ذهبت الشيعة فيه إلى القول بأن البعض

(١) وتؤيد الشيعة موقفها هذا برديدها هذه الآية "وربك يخلق ماشاء ويمختار ما كان لهم الخيرة.." (القصص ٦٨) فمن حق الله أن يختار إماماً من يجدوه كفلاً لذلك.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) انظر محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها ص ٧١ وما بعدها.

(٤) أليبر نصرى: أهم الفرق الإسلامية السياسية والكلامية ص ١٨: ١٩.

(٥) لكن هناك فرق منهم يقول إن الإمامة بعد الحسين كانت من حق محمد بن الحنفية وهي معروفة باسم الكبسانية ولكن معظم الشيعة وهم المشهورون باسم الإمامية يقولون إن الإمامة من حق سلالة الحسين ثم ظهر اختلاف آخر بين الشيعة الإمامية حول شخص الإمام السابع، فقال بعضهم: إنه موسى الكاظم الذي استمرت الإمامة في سلالته حتى محمد المهدي وهذه الفرق عرفت بالأنى عشرية، وقال البعض الآخر إنه إسماعيل وهو الشيعة الإسماعيلية وهكذا يعد هؤلاء أهم فرق الشيعة بجانب ما يقرب من العشرين فرقاً تختلف على شخص الإمام بعد الحسين بن علي. انظر البير نصرى: الفرق الإسلامية السياسية ص ٢٠.

ولكن في الحقيقة لقد وقفت المرجنة في البداية موقفاً سياسياً محايداً بين الحزب الأموي والجهة الثورية المتمثلة في الشيعة والخوارج، وحسبنا أن "نافع بن الأزرق"^(١) أشد زعماء الخوارج تطرفاً هو أول من أطلق عليهم اسم المرجنة لوقفهم المحايد فيما يحدث من خلاف بين المسلمين في أواخر عصر عثمان، فلم يسهموا في الثورة عليه، ولم يشتركوا مع العثمانية في الأخذ بثاره بعد مقتله بالانضمام إلى معاوية بن أبي سفيان وإنما آثروا التراث الحذر انتظاراً لما يسفر عنه الصراع من نتائج^(٢).

مراحلهم ودروبهم السياسية: الإرجاء كفكريسياسي، والمرجنة ك أصحاب لهذا الفكر، قد عرفهم المجتمع الإسلامي أول ما عرفهم على عهد الدولة الأموية، ومنذ أن استقر ذلك التغيير الذي أحدهه معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق.هـ - ٦٠ هـ - ١٨٠ م) في طبيعة السلطة بالمجتمع وفلسفتها.

حيث كانت الشورى هي فلسفة نظام الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين، فجاء تأسيس معاوية الدولة الأموية ليضع النظام الوراثي الشبه ملكي وتبع ذلك قيام مظاهر كثيرة للظلم الاجتماعي والتمييز القبلي والعرقي والسياسي، الأمر الذي أدى إلى نشأة العديد من حركات المعارضة وأحزاب المقاومة، فعالجها معاوية وخلفاؤه بألوان من القمع وضروب

(١) هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلى زعيم الأزارقة الخوارج وإليه نسبتهم، احتاج القرى في جنوب شرق العراق وقتل وسى الكثيرون من أهلها في محاولة منه لإخضاع أهلها له ببدلاً من الولاء للأمويين، قتل في واقعة دولاب عام ٦٥ هـ أيام خلافة عبد الله بن الزبير وكان يعتقد أن المسلمين جميعاً كفار إلا هو ومن معه (تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٤٣٦: ٤٣٨) انظر أيضاً مصطفى الشكعة ص ١٣٣.

(٢) انظر الحركات السرية ص ٣٢: ٣٣ (والبحث عن أصول هذا الاتجاه المحايد الاتهاري من الصعوبة يمكن فمقالات المرجنة الأولى معدومة، كما أن كتبهم المتأخرة لم تصل إلينا لاضطهادهم في العصر العباسي عصر التدوين التاريخي (أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٨١).

عن النية والعقد، كما يصح إطلاق الاسم بالمعنى الثاني: لأنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل: الإرجاء: تأخير على عن الدرجة الأولى إلى الرابعة فعلى هذا المرجنة والشيعة فرقان متقابلان^(١). ولفظ المرجنة قد عرف به أحزاب وفرق وجماعات إسلامية عدة، حيث جاء اشتقاقاً ونسبة إلى مصطلح الإرجاء^(٢). وهذا المصطلح قد عنى في الفكر الإسلامي: الفصل بين "الإيمان" باعتباره تصديقاً قلبياً ويقيناً داخلياً غير منظور وبين العمل باعتباره نشاطاً وممارسة ظاهرية قد تترجم أولاً عما بالقلب من إيمان: ويعنى ذلك الرفض القاطع للحكم على العقائد والضمائر من قبل البشر أياً كان مكانه أو سلطانه، وما علينا إلا أن نرجح الحكم على العقائد وعلى الإيمان إلى يوم الحساب^(٣).

ثانياً: المرجنة والتشيّة السياسية:

لم يغب عن ذهن الدارسين لتاريخ الفرق الإسلامية ما انطوت عليه عقائد الشيعة من محتوى سياسي، لكن قليلاً منهم من فطن إلى تلك الحقيقة فيما يتعلق بجزء الوسط(المرجنة والمعزلة)^(٤) ولعل اغفال الجانب السياسي فيما يتعلق بالمرجنة راجع إلى تأخر ظهورهم تاريخياً، فضلاً عن تضاؤل دورهم السياسي بالقياس للدور المتعاظم الذي قام به الشيعة والخوارج.

(١) انظر: صلاح أبو السعود: الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ص ١٦٢.

(٢) انظر: الأشعري مقالات الإسلاميين جـ ٢٢٢: ٢١٣، والفرق بين الفرق ص ١٩١: ١٩٠، والملل والنحل جـ ٢ ص ٦٨: ٦٤، ٥٩: ٦٢.

(٣) محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي ص ٣٥.

(٤) حيث درست المرجنة كفرقة مذهبية اعتقادية وحسب، تدور عقائدها حول مسألة الكفر والإيمان انظر: مجىء هاشم: نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص ٣٥٧ كما أن الدراسات عن المعزلة لم تتجاوز الجانب الميتافيزيقي الكلامي فيتناول مسائل الإلهيات.

تزييناً لما يصدر عنها من مطامع ومخالفات، وحتى إرجاء الثوار لم يكن دينياً بل سياسياً أيضاً حيث كان بغية رد المظالم السياسية والقمع الصادر من قبل الدولة^(١).
خلاصة الأمر: أننا أمام تيارات متعددة بل ومتعارضة استخدمت هذا الفكر الذي نشأ نشأة سياسية في صراع سياسي واجتماعي استخدمته في نصرة فريق ضد فريق وقوة سياسية ضد أخرى فالبعض قد وظف الإرجاء للدفاع عن الدولة وحكامها، والبعض قد تسلح به في صراعه ضد هذه الدولة وحكامها، وللتاكيد على هذه الحقيقة السياسية الهمامة في نشأة المرجنة وفاعليتها عبر الأدوار المختلفة التي وظفت من خلاله سأستعرض بعض المبادئ الهمامة التي قد تبدوا من ظاهرها بأنها دينية أو عقائدية إلا أنه سينجلى أمرها بكونها خادمة وراغبة للتوجهات السياسية العديدة وذلك كما يلى:

— كان من نتائج تعاليهم أن الإيمان هو التصديق فقط وأن العمل ليس داخلاً في مفهومه فكل من آمن بالله ورسوله فهو مؤمن وإن ارتكب الكبيرة، كما أن مبدأهم في حواز عفو الله عن العصاة أوجد احتمالاً أن مرتكب الكبيرة يدخل الجنة من غير عقاب^(٢).

وهذه الآراء تخدم السياسة ولو من طريق غير مباشر وأقل ما فيها أنها تحمل أصحابها

(١) انظر الشهري الملل والنحل جـ ١ ص ٦٤:٦٤، ٦٦:٦٤ ط القاهرة ١٣٣١ هـ (وإن كان هناك تيار آخر ينسب إلى الإرجاء وإن كان مختلفاً كلية من حيث المفهوم الذي يرجع إلى فصل العمل عن الإيمان، حيث اقتصر هذا الإرجاء على تأخير على بن أبي طالب في الأفضلية عن الخلفاء الثلاثة المتقدمين عليه فهم بالترتيب التالي: أبو بكر فعمرو، فعثيمان، فعلى) (انظر: القاضي عبدالجليل: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢١٥ ط تونس ١٩٧٢م وخطط المقريزي جـ ٣ ص ٢٩٢ ط دار التحرير القاهرة).

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين ص ١٤١، أحمد أمين ضحي الإسلام جـ ٣ ص ٣١٧.

من الاضطهاد أدت إلى أن طرحت الحياة الفكرية في المجتمع الإسلامي على بساط بحثها قضية: هل من أحدث مثل هذه التغييرات والتحولات في نظام الحكم الإسلامي هل هو مؤمن؟ أي: أن الحياة السياسية والفكرية قد شرعت ببحث عن دلالة "العمل" على "الإيمان" وعن العلاقة بينهما، مرتبطة أم منفصلان؟!

وكان معاوية وأركان دولته مع الفصل بين الإيمان والعمل فإذا كانت أعمال الدولة لا تصلح نموذجاً مثالياً لقيم الدين فلا يجب أن تتحذذ دليلاً على افتقار خلفائها إلى الإيمان، وإنما يجب إرجاء الحكم على العقاديد إلى الباري سبحانه يوم الدين.^(١) هكذا عرف المجتمع الإسلامي تيار الإرجاء بدأً بين أمية وأركان دولتهم الذين استهدفوا أبعاد شبح التكفير عن أولئك الذين قلبوا نظام الحكم في المجتمع الإسلامي.

المرحلة الثانية من الإرجاء السياسي:

تمثل عندما فجر الظلم الأموي^(٢) ثورات ومعارضات وثورات بين أبناء الشعوب التي دخلت حدثاً في الإسلام، وكسب هؤلاء إلى صفوفهم قادة وعلماء من العرب المسلمين، ووُجدت هذه الثورات وهؤلاء الثوار في فكر الإرجاء صيغة يشجبون بها فكريّاً موقف الدولة الأموية.

فكان ذلك بدء النشأة لتيار المرجنة السياسي في صفوف المعارضة لبني أمية بعد أن نشأ مبكراً في صفوف هذه الدولة، ولقد كان هؤلاء المرجنة الثوار وقائعاً مع سلطات الدولة الأموية وكان لهذه السلطات بجازر في هؤلاء الثوار، وبذلك يتضح أنه في كلتا المراحلين من مراحل الإرجاء كان الدافع سياسياً بعثاً لا دينياً. ففي إرجاء الدولة حاولت التلتفع به

(١) انظر د/محمد عماره: تيارات الفكر الإسلامي ص ٣٦:٣٧.

(٢) حيث اشترط الأمويون شروطاً تعجيزية للذين دخلوا حدثاً في الإسلام منها الاختتان، إقامة فرائض الإسلام، حسن الإسلام، قراءة سورة من القرآن.

"عبد الرحمن بن الأشعث"^(١) "ويزيد بن المهلب (١٠٢-١٠٠هـ)"^(٢). ظهرت أولى مبادئهم السياسية التي ترى بأن الأئمة لا يثبت إلا بإجماع الأمة^(٣).

— واقتبسوا من الخوارج آراءهم السياسية الديقراطية فقالوا "صلاحية الإمامة في غير قريش" وأحقي كل من كان قائماً بالكتاب والسنّة لها^(٤).

— كما نادوا بأن العمل لصيق بالإيمان وصدر عنده صدوراً ضمنياً.

— كما تأثر الإرجاء بالتشييع فأخذوا بالتأنيل وبفكري التقى والمهدى المتظر.

وحسبنا أن بعض شيوخ المرجحة لم يجدوا غضاضة في اظهار تشيعهم لأسباب سياسية^(٥) وعلى أثر ماحل بالمرجحة من محن شرعوا بالفعل في اتباع سياسة جديدة قد

(١) هو الأمير متول سجستان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي بعثه الحجاج على سجستان فثار هناك وأقبل في جمع كبير وقام معه علماء وصلحاء الله تعالى وقد اختلف في طريقة وفاته فقيل عندما قربا من العراق ألقى نفسه من قصر خراب فهلك وذلك في سنة ٨٤هـ (الحافظ الذهبي أعلام النبلاء جـ ٤ رقم ٧٤ ص ٧٦٢).

(٢) انظر فلهوزن الدولة العربية ص ٢٢٤ وما بعدها وص ٣٠ (وقد أعطوا تلك الحركتين طابعاً ثورياً اجتماعياً ودينياً كذلك) (يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأمير أبو خالد الأزدي ولـى المشرق بعد أبيه ثم ولـى البصرة لـسليمان بن عبد الملك ثم عزله عمر بن عبد العزيز مولده زـمن معاوية ٥٣هـ وـقـيل قـتل عن تـسع وأربعـين سـنة وـقـتل في ١٠٢هـ على يـد مـسلـمة بن عبدـالـلـك "الـحـافـظـ الـذـهـبـيـ جـ ٤ رقم ٩٧ ص ٩١١").

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ ٣٣١ (وفي ذلك إسقاط حق بين أمية في الحكم على أساس أن في الأمة من لم يعترف بشرعـيتـهمـ).

(٤) أحمد أمين: ضحـى الإسلام جـ ٣ ص ٣٣٢.

(٥) وليس أدل على ذلك من موقف أحد شيوخـهمـ وهو عـامـرـ بنـ شـرـحـيلـ الشـعـيـ الذي أـظـهـرـ التـشـيـعـ فـاشـتـرـكـ فيـ ثـورـةـ المـختارـ الثـقـفـيـ ثـمـ اـرـتـدـ بـعـدـ فـشـلـ الثـورـةـ وـاشـتـرـكـ فيـ حـرـكـةـ عـبدـالـرـحـمـنـ الأـشـعـثـ فـلـمـ أـخـفـقـتـ أـعـلـنـ تـوبـتـهـ فـوـلـيـ قـضـاءـ الـكـوـفـةـ فـلـمـ سـقـطـتـ الدـوـلـةـ الـأـمـوـيـةـ أـظـهـرـ وـلـاءـ لـبـنـ الـعـبـاسـ (ـرـاجـعـ ابنـ سـعـدـ جـ ٢٤٥ـ صـ ٥ـ وـمـابـعـدـهاـ).

ليسوا ضد الدولة، فمبادئهم تقضي أن الحرب في الصدر الأول لا تفسق أحداً وإذا أخطأ بعضهم فغدو الله يشمله؛ لأن غاية الأمر أنه ارتكب كبيرة وذلك لا يخرجه عن الإيمان والأمر يتعلق بالنية، ونتيجة لذلك أنهم ينظرون إلى معاوية وخلفائه من بعد نظرهم إلى علىٰ لـذـاـ كـانـواـ مـعـ الـأـمـوـيـنـ فـلـمـ يـضـطـهـدـ الـأـمـوـيـوـنـ مـرـجـحاـ وـكـذـاـ كـانـ شـأـنـهـ مـعـ الـعـبـاسـينـ^(١).

حيث كانت مبادئهم تبرير واضح لاغتصاب بنى أمية حق الإمامة بواسطـلـ التـدـلـيـسـ والـاغـتـيـالـ وـأـسـالـيـبـ التـرـغـيبـ وـالـتـرـهـيبـ، لقد كان الإرجاء لـذـكـ دـيـنـ الـلـوـكـ^(٢).

لـذـاـ حـظـىـ شـيـوخـهاـ بـرـعـاـيـةـ الـأـمـوـيـنـ الـأـوـاـلـ فـأـقـامـ بـعـضـهـمـ فـيـ دـمـشـقـ بـخـلـافـ غـيرـهـمـ مـنـ الـفـرقـ^(٣)، كما نـعـمـواـ شـيـوخـهـمـ بـإـلـاقـةـمـ فـيـ الـبـصـرـةـ دونـ أـنـ يـجـدـواـ عـنـتـاـ مـنـ وـلـاتـهـ وـعـولـواـ عـلـىـ نـشـرـ مـذـهـبـهـمـ وـلـاقـواـ اـسـتـجـاهـةـ وـاسـعـةـ^(٤). وهذا المنطق يـؤـكـدـ مـاـ لـانـطـوـيـ عـلـيـهـ الإـرـجـاءـ مـنـ نـزـعـةـ بـرـجـاهـيـةـ تـغلـبـ الـمـصـلـحةـ عـلـىـ مـاـ عـدـاـهـ.

مرحلة انتقالية أخرى من آرائهم:

حيث بـانـ فـيـ الأـفـقـ سـقـوطـ بـنـيـ أـمـيـةـ لـاـ محـالـةـ وـاستـشـعـرـ المـرـجـحةـ تـحـولـ المـوقـفـ لـصالـحـ الـخـوارـجـ وـالـشـيـعـةـ فـدـارـوـاـ مـعـ الـفـلـكـ حـيـثـ دـارـ، حيثـ الـآـرـاءـ التـبـرـيرـيـةـ السـالـفـةـ تـحـولـتـ إـلـىـ أـيـديـوـلـوـجـيـةـ اـصـلـاحـيـةـ حـيـثـ طـالـبـ المـرـجـحةـ "الـعـلـمـ بـالـقـرـآنـ وـالـسـنـةـ"ـ وـالـأـخـذـ بـمـبـدـأـ الشـورـىـ وـأـسـفـرـ ذـلـكـ عـنـ نـتـائـجـ سـيـاسـيـةـ هـامـةـ إـذـ اـشـتـرـكـ المـرـجـحةـ فـيـ الـحـرـكـاتـ السـيـاسـيـةـ الـمـنـاوـةـ لـبـنـيـ أـمـيـةـ كـحـرـكـتـ

(١) انظر: محمد الطاهر النفيـرـ أهمـ الفـرـقـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ٥٥:٥٦ نـشـرـ الشـرـكـةـ التـونـسـيـةـ للـتـوزـيعـ.

(٢) أحمد أمين: فـحـرـ الـإـسـلـامـ صـ ٢٨٠، هـامـلـتوـنـ جـبـ درـاسـاتـ فـيـ حـضـارـةـ الـإـسـلـامـ صـ ١٢ (وفي ضوء ذلك يمكن تفسير بـطـشـ بـنـيـ أـمـيـةـ بـكـافـةـ الـفـرـقـ الـإـسـلـامـيـةـ بـإـسـتـنـاءـ الـمـرـجـحةـ).

(٣) انظر حـسـنـ إـبرـاهـيمـ حـسـنـ: تاريخـ الـإـسـلـامـ السـيـاسـيـ ٢:٥.

(٤) انظر فـلـهـوزـنـ: الـخـوارـجـ وـالـشـيـعـةـ صـ ٣٤، محمد جـابرـ عـبدـالـعـالـ حـرـكـاتـ الشـيـعـةـ الـمـتـرـفـينـ فـيـ الـعـصـرـ العـبـاسـيـ الـأـوـلـ ١٧٨:١٧٥.

تسييس بعض المذهبيات العقدية

(فتنة خلق القرآن واحتضان مذهب المعتزلة)

أولاً: التعريف بالمعتزلة ونشأتهم:

حتى نهاية القرن الأول للهجرة لم يهدأ تماماً الزاع حول شرعية الإمامة ومصدر سلطة الإمام، هذا الزاع الحاد الذي كان سبباً في ارقة دماء الكثيرين من المسلمين، استمر هذا الزاع على شكل جدل داخل المساجد، حيث كانت تعقد الحلقات عند السواري لمناقشة موقف الأحزاب الواحد من الآخر في هذه المسألة الشائكة، مسألة الإمامة. وكانت البداية في مسجد البصرة حيث "الحسن البصري" يرأس حلقه، وقد اشتهر بعلمه وزهده وكان هذا في مستهل القرن الثاني للهجرة وهذا التاريخ ليس بعيداً عن مسرح الزاع المسلح الذي شتت المسلمين فرقاً وشاهد مقتل عليٍّ ومشهد الحسين في كربلاء^(١). وهنا كان لابد أن تثار مشكلة لم يحلها الزمان بعد ليومنا هذا وهي ما هو موقف الإسلام من كلا الطرفين اللذين اشتراكاً في الزاع بين الإمام على ومعاوية؟

لذا سأله رجل الحسن البصري "هل من أتى بكبيرة مؤمن أم كافر؟" وقبل أن يجيب الحسن قام "واصل بن عطاء"^(٢) وقال "إن أقول أن من أتى بكبيرة هو ليس بمؤمن ولا بكافر، بل هو في منزلة بين المرتلين أي: بين الإيمان والكفر، فهو ليس بمؤمن يستحق النعيم ولا بكافر

(١) انظر الملطي: أبو الحسن محمد بن أحمد التبياني والردعلي أهل الأهواء والبدع ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٢) واصل بن عطاء البليغ الأفوه أبو حذيفة المخزومي مولاهم البصري الغزال وقيل ولاوته لبني ضبة ولد سنة ٨٠ هـ بالمدينة وكان يبلغ بالراء غيناً فلاقتداره على اللغة وتوسعه يتجنب الوقوع في لفظة فيها راء وقد طرده الحسن عن مجلسه لما قال: الفاسق لامؤمن ولا كافر فانضم إليه عمرو واعتزل حلقة الحسن فسموا المعتزلة وقيل: لواصل تصانيف ومات سنة ١٣١ هـ وقيل: عرف بالغزال لترددته إلى سوق الغزل (الحافظ الذهبي سير أعلام النبلاء رقم ٢١٠ ج ٥ ص ١٢١).

انطوت على هدفين أساسين: أولهما محاولة "تشويه" الخلافة في الشام باحتواء الخلفاء إلى مذهبهم ويدعوا أنهم تعاونوا مع المعتزلة فيما يتعلق بهذا الأمر وكان نتيجته اقناع الخليفة (عمر بن عبد العزيز) بالعدول عن سياسة أسلافه والمساواة بين العرب والموالي في الحقوق والواجبات.

وثانيهما: الدعوة السرية المنظمة في خراسان على نسق ما فعله الشيعة والخوارج ويدعوا أنهم أفادوا من الدعوة الماشمية في تحقيق هذا الأمر^(١).

وقد توالت ثورات المرجحة بعدما طوعوا آراءهم الاعتقادية بما يتمشى وظروف الدعوة السرية، وأفادوا في هذا الصدد من فكر الشيعة السياسي وظلوا هكذا وتتوالت بهم الأحداث حتى استطاعوا هم وغيرهم الانقضاض على الدولة الأموية وإسقاطها^(٢).

وهكذا تحول حزب الوسط الإرجاني الذي بدأ معتدلاً ثم انتهازياً ميرراً للسلطة إلى مناوئ لها يدعو للإصلاح ثم انتهى به المطاف إلى أن صار ثوريًا حقًا مثل أحزاب اليسار (الخوارج والشيعة) أسهم بدور كبير في إسقاط حزب اليمين الأموي الذي أجهزت عليه الثورة العباسية.

(١) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ٣٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر الطبرى ج ٧ ص ٣٣١، ابن حزم: الفصل في الملل ج ٤ ص ٢٠٤.

أسباب التسمية^(١).

ثانياً: قضية خلق القرآن واستغلالها سياسياً:

المعتزلة واحدة من الفرق الإسلامية الكثيرة انتهت وسائل عقائدية معينة اعتمدت فيها على العقل والجدل، ولكن الذي يميزها أنها لم تكن فرقة سياسية كما هو الأمر بالنسبة للخوارج والشيعة، أو على الأقل لم تكن الفرقة في أول نشأتها ذات اتجاه سياسي معين أو نتيجة لعقيدة سياسية معينة ثم مالت بمرور الزمن أن دخلت خضم السياسة وغرقت فيه إلى الأذقان حينما استعان أئمتها بعض الخلفاء العباسين (الملامون^(٢) والمعتصم^(٣) والواثق^(٤)) اللذين اعتنقا مذهب الاعتزال وأنزوا بخصومه الكثير من الضرر والأذى

(١) وبالرجوع إليها نجد أنها تعود على الناحية اللغوية فقط والمنطقى أن ترتبط التسمية ب موقف فكري سياسى كما هو مأثور في تسميات الفرق الأخرى (انظر في هذا: الشهستان: الملل والنحل جـ ١ ص ٥٥ والسعودى في مروج الذهب ٢٢٠٦ والتوبختي: فرق الشيعة ص ٤: ٥).

(٢) هو الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي ولد ١٧٠هـ وكانت كنيته أبو العباس فلما استخلف اكتفى بأبي جعفر وكان من أشد رجال بني العباس حزماً ورايا وقد جرت بيته وبين أخيه الأمين حروب انتهت بقتل الأمين وبمابعه الناس له ١٩٨هـ توفي وهو في الثامنة والأربعين ٢١٨هـ (الحافظ الذهبي: أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٢٢١٧ رقم ٧٢ انظر أيضاً جرجى زيدان كتاب الأمين والملامون ص ١٦ وما بعدها المكتبة الادبية بيروت).

(٣) هو الخليفة أبو إسحاق محمد بن الرشيد هارون بن محمد المهدي بن المنصور العباسي ولد ١٨٠هـ وأمه ماردة أم ولد بويغ بعهد من المؤمنون في ١٤ رجب ٢١٨هـ وتوفى وله من العمر ثمانية وأربعون سنة (انظر الحافظ الذهبي أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٢٢٢١ رقم ٧٣).

(٤) هو الخليفة أبو جعفر أبو القاسم هارون بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور العباسي البغدادي أبوه رومية اسمها قراطيس ولـي الأمر بعهد من أبيه ٢٢٧هـ وكان مولده في شعبان ١٩٦هـ وقال الخطيب: لقد استولى أبوه داود على الواثق وحمله على التشدد في الخنز والدعاء إلى خلق القرآن وكانت خلافته حمس سنين ونصف مات بسامرة ٢٣٢هـ (الحافظ الذهبي أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٢٢٢٥ رقم ٧٤).

تحب علينا مقاتلته أنه فاسق ومن هنا بدأ الاعتزال ينطلق^(١).

وهناك من يرى أنه بعد مقتل عثمان بن عفان (٣٥هـ) (وبيعة على خليفة المسلمين اختالف الناس هل عثمان قُتل ظالماً أم مظلوماً وقام من يطالب بدمه ، في ظل هذه الأحداث ظهرت طائفة آثرت عدم الخوض في غمار هذه الفتنة وكان من اعتزل الفتنة سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر وسموا بمعتزلة الفتنة^(٢)).

ومن الواضح أن الأقوال المختلفة قد نشأ أغلبها على أساس من التعليل الموضوعى، فهي من ثم اجتهادات لاحقة لظهور التسمية ظهوراً تاريخياً^(٣)، والروايات متضاربة حول

(١) انظر الخياط المعتزلي. الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد ص ٩٢ ترجمة ألبيرنادر، بيروت ١٩٥٧م.

(٢) ويجب عدم الخلط بين المعتزلة المتكلمين ومعتزلة الفتنة، حيث إن المعتزلة المتكلمين يقولون بأصول خمسة، وهذه الأصول لم يقل بها أحد من معنزة الفتنة. ومن ناحية أخرى: كان معنزة الفتنة على الحيد السلى بالنسبة للأحداث التي عاصروها أما المعتزلة المتكلمون فقد أدلو بدلهم في أحداث خاصة للفريقين المتقابلين في صفين، وعلى هذه الأحداث التقاء فكري بين الفريقين (صلاح أبو السعود: المرجع الكامل في الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ١٢٦: ٩٦). وهناك المعتزلة الجديدة وهي مدرسة فكرية مؤلفة من بعض المئون المسلمين السنين شكلها "سيد أحمد خان" وهذه المدرسة ليس لها صلة بينها وبين المعتزلة القديمة منهم يرووا أن الإسلام الصحيح دين العقل، وأنه أقرب من غيره من الأديان إلى الطبيعة البشرية ولذلك يقولون بضرورة التجديد في الدين (انظر المرجع السابق ص ١٣١). وإن كنت أرى عدم صواب هذه العبارة؛ لأن المعتزلة القديمة كانت ترى هي أيضاً كون الإسلام دين عقل ومتافق أيضاً مع الطبيعة البشرية إذا ليس هناك لها خلاف بينهما.

(٣) وفي الحقيقة أن الرابط بين الرأيين رابطة اسم فحسب، وذلك لأن رأى واصل في مرتكب الكبيرة ليس توقيعاً حيادياً ولا يعفيه من المواجهة السياسية العنيفة من أصحاب المصالح فهو في الحقيقة لا يقف موقفاً هيناً منهم؛ لأنه يحكم على مرتكب الكبيرة على أقل تقدير بأنه غير مؤمن وهذا موقف لا يقل خطورته من موقف الخوارج الذي يدمغونه بالكفر الصريح (يعنى هاشم: الفرق الإسلامية في الميزان ص ١٧٢ الأفاق العربية).

طرسوس ، ولكن المؤمن مات قبل أن يصل الفقيه العظيم^(١)، وظن المسلمون أن الفتنة قد انتهت ، غير أنه كان قد أوصى أخاه وخليفته (المعتصم) بالسير في طريق الفتنة فمزق جسم الإمام بالسياط^(٢). واستمر الأمر على نفس الترتية في عهد ابنه الواثق الذي قتل بعض معارضي فكرة خلق القرآن وصلبهم، واستمرت محبة الإمام أحمد بن حنبل قائمة حيث فرض عليه عدم الاجتماع بالناس والتحدث والفتوى^(٣). واستمرت تلك الحملة الإرهابية والفتنة التي لم يحک نظيرها في الإسلام حتى جاء (المتوكل)^(٤) فرفع تلك المحنّة وترك الأمور تأخذ سيرها الطبيعي، وأفرج عن ابن حنبل وكان له في عصر المتوكل مركز كبير وتوفي (٢٤١ هـ) وقد حضر جنازته من الرجال ثمانمائة ألف ومن النساء ستون ألفاً^(٥).

وهكذا انتهت هذه المحنّة التي كانت لا شك ضرباً من الهوس المذهبي الذي لا يستحق كل هذا الغلو، والذي لا يقدم ولا يؤخر في صلب عقيدة الإسلام لو لا تدخل الحكام والساسة وتحول الفكر والقضية إلى تبني سياسي. ويتبين من خلال تلك القضية التي قد تبدوا من الوجهة الأولى أنها عقائدية المنشأ بأنها كانت أبعد ما يكون عن ذلك وأنها

(١) انظر الشيخ محمد الخضرى بك محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية(الدولة العباسية)ص ٢١١:٢١٨.

(٢) انظر محمد الطاهر النيفير : أهم الفرق الإسلامية ص ٤٦.

(٣) انظر مصطفى الشكعة إسلام بلا مذاهب ص ٣٩٥:٣٩٩.

(٤) هو الخليفة أبو الفضل جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون بن المهدى بن المنصور القرشى العباسى البغدادى ولد ٢٠٥ هـ وبويغ عند موت أخيه الواثق ٢٣٢ هـ وقيل: استخلف المتوكل فأظهر السنّة وتكلم بما في مجلسه ورفع المحنّة ونصر السنّة وأهلها قتل سنة ٢٤٧ هـ في شوال على يدى ولده المتصر(انظر ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٥٠ وما بعدها والحافظ الذهبي جـ ١٢ رقم ٧).

(٥) صلاح أبوالسعود: الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ص ٢٠٥.

والانتقام^(١) ويتبين ذلك جلياً عندما نعرض لفترة خلق القرآن، تلك المحنّة العصيبة التي توضح بجلاء مدى تأصل مذهبها ماعندما تحضنه يد الساسة ، وتفرضه جبراً على أبناء العباد. وبطل فتنة خلق القرآن كان الخليفة المؤمن"الذى تأثر بالمعتزلة وقرهم لأنه كان تلميذاً لأبي الهذيل العلاف^(٢) أحد رؤسائهم، وتبين المؤمن هذه القضية يدفعه إليها دفعاً وفي مقدمتهم كبير قضاة (أحمد بن أبي دؤاد)^(٣). حيث نادى المعتزلة أن الكلام مخلوق لله تعالى، وأن القرآن الكريم كلام الله فهو بالتالي مخلوق . وتبين المؤمن الفكرة وأصدر منشوراً صور فيه ازعاجه للأصحاب الدين وما حل بالإسلام من ضير^(٤) وبدأ المؤمن بقضائه وعمالة وجعل يطلب إليهم الإيمان بخلق القرآن، ومن لا يؤمن بذلك يعزل فوراً ، إذ أنه يصبح غير موثوق بدينه" حتى لا تنفذ أحكام الله تعالى إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد".

حنبل^(٥) من جراء تلك الفتنة آذى شديد ، إذ سبق في القيود الحديدية لكي يقابل المؤمن في

(١) انظر محمد الطاهر النيفير: أهم الفرق الإسلامية ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) رئيس المعتزلة أبو الهزيل محمد بن الهزيل البصري العلاف صاحب التصانيف أحد الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل تلميذ واصل بن عطاء الغزال وطال عمر أبي الهزيل وجاوز التسعين وتوفي ٢٢٧ هـ— وقيل ٢٣٥ هـ (الحافظ الذهبي سير أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ٢٢٧٤ رقم ١٧٣).

(٣) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي داؤد فرج بن حمير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن مالك بن عبد هند بن عبد نجم.... المذلى بن أمية بن حنيفة بن زهير بن إياد بن أدد بن معبد بن عدنان ولـي القضاء للمعتصم ثم للواثق وأعلن مذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الآخرة (ابن كثير: البداية والنهاية الجزء العاشر).

(٤) انظر الطبرى جـ ٣ ص ١١٨.

(٥) أبوعبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن أدریس بن عبد الله.... الذهلي الشيباني المروري ثم البغدادي ولد في ربيع الاول ١٦٤ هـ من أبوين عربين وتوفي ٢٤١ هـ (انظر تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٤١٥ كتاب ابن حنبل حياته وعصره للإمام محمد أبو زهرة دار الفكر العربي، وأعلام النبلاء جـ ١١ ص ١٧٧).

عليهم من مظالم وجور^(١) فالعدل والاختيار عند المعتزلة ينطوى على بعد سياسي مؤدّاه الحض على محاربة السلطة المغتصبة على أساس أن وجودها نتيجة لفعل بشري وإسقاطها لا يتم إلا بفعل بشري مضاد مadam إلأنسان حرًا في صنع أفعاله^(٢).

أصل الوعيد والوعيد: وفي هذا الأصل رفضوا الفكرة الجوهرية لعقيدة فرقـة المرجـحة، فـكرة الفـصل بين "الإيمـان" و"العمل" فـقال المـعتـزلـة: إن الـوعـدـ يعنيـ أنـ منـ أطـاعـ اللهـ دـخـلـ الجـنةـ، وـأنـ وـعـدـ اللهـ بـذـلـكـ صـدـقـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـحـلـفـ.

أما الـوعـيدـ فإـنهـ يعنيـ أنـ منـ عـصـىـ اللهـ دـخـلـ النـارـ، وـخـلـدـ فـيـهاـ أـبـداـ إـذـ كـانـ ذـنـوبـ كـبـائـرـ لـمـ يـتبـ مـنـهـ قـبـلـ مـاتـهـ، وـهـذـاـ الـوعـيدـ صـدـقـ لـنـ يـتـحـلـفـ وـقـوـعـهـ أـبـداـ.^(٣)

وـاضـحـ أنـ هـذـاـ الأـصـلـ مـنـ أـصـلـ المـعـتـزلـةـ طـابـعـ سـيـاسـيـاـ بـارـزاـ، فـلـقـدـ كـانـ فـكـرـ المـرـجـحةـ يـمـلـيـ للـظـالـمـينـ وـيـمـدـ لـهـ حـبـالـ الـأـمـلـ فـيـ النـجـاحـ، يـنـمـاـ كـانـ فـكـرـ المـعـتـزلـةـ يـحـكـمـ عـلـيـهـمـ بـالـفـسـقـ وـالـخـلـودـ فـيـ النـارـ، وـيـقـرـرـ بـهـذـاـ الأـصـلـ صـدـقـ الـوعـيدـ لـهـ، وـاستـحـالـةـ تـحـلـفـهـ، وـمـنـ ثـمـ اـسـتـحـالـهـ إـفـلـاقـهـ مـنـ الـخـلـودـ فـيـ النـارـ.

٣- أصل المعتزلة بين المترفين:

وـهـىـ مـنـ أـوـلـ الإـضـافـاتـ الـتـىـ قـدـمـهـ "واـصـلـ بـنـ عـطـاءـ"ـ فـأـحـدـثـ بـهـ ذـلـكـ الـانـشـاقـاقـ فـصـفـوفـ الـقـائـلـينـ"ـ بـالـعـدـلـ وـالـتـوـحـيدـ"ـ فـنـشـأـتـ بـهـ ذـلـكـ كـفـرـةـ مـسـتـقـلـةـ.

وـيعـنـىـ هـذـاـ الأـصـلـ أـنـ مـرـتـكـبـ الـكـبـرـةـ الـذـىـ أـجـمـعـ كـلـ مـنـ الـخـوارـجـ وـالـمـرـجـحةـ وـأـهـلـ الـعـدـلـ وـالـتـوـحـيدـ عـلـىـ تـسـمـيـتـهـ بــ"ـفـاسـقـ"ـ ثـمـ اـخـتـلـفـوـ بـعـدـ ذـلـكـ فـقـالـ الـخـوارـجـ:ـ هـوـ فـاسـقـ كـافـرـ،ـ وـقـالـتـ الـمـرـجـحةـ:ـ هـوـ فـاسـقـ مـؤـمـنـ،ـ وـقـالـ الـحـسـنـ الـبـصـرـىـ هـوـ فـاسـقـ مـنـافـقـ.

(١) انظر تفصيل هذا الأصل لدى القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ ٨ صـ ٢٨٣، ٢٨٨: ٢٨٣

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد صـ ٩٤

(٣) راجع في هذا المرجع السابق جـ ٣ صـ ٣٦٦

أقرب ما يكون عن تحقيق مآرب وأهواء سياسية وأمزجة ساسة وحكام.

ثالثاً: أهم الأصول الفكرية والسياسية لهذا التيار: لقد كان تيار أهل العدل والتوحيد تياراً فكرياً وسياسياً أكثر منه "فرقة منضبطة" وخاصة في جانب "التنظيم" ولقد اخترط في هذا التيار الذي كان الحسن البصري أبرز أئمته وقادته كل الذين تصدوا لعقيدة "الجبر" التي أظهرها الأمويون، فعارضوها بإظهار موقف الإسلام المنحاز إلى حرية الإنسان و اختياره وقدرته، ومن ثم مسئوليته عن أفعاله^(٤).

وـحـقـيقـةـ أـنـ الدـورـ السـيـاسـيـ الـاجـتمـاعـيـ يـبـدوـ ضـيـلاـ فـيـ صـدـرـ الـإـسـلـامـ وـالـعـصـرـ الـأـمـوـيـ بالـقـيـاسـ إـلـىـ دـورـ أـحـزـابـ الـمعـارـضـةـ الـأـخـرـىـ،ـ وـهـذـاـ رـاجـعـ بـطـبـيـعـةـ الـحـالـ إـلـىـ تـأـخـرـ ظـهـورـ الـمـعـتـزلـةـ زـمـنـياـ^(٥)ـ كـذـلـكـ لـاـخـتـلـافـ أـسـلـوبـ وـطـرـائـقـ النـضـالـ إـذـ عـولـ الـمـعـتـزلـةـ عـلـىـ اـتـابـ أـسـلـوبـ الـتـرـشـيدـ وـالـتـوـبـ إـلـىـ أـنـ أـسـفـرـ النـضـالـ الـاعـتـزـالـيـ عـنـ التـسـلـلـ دـاخـلـ الـسـلـطـةـ وـالـهـيـمنـهـ عـلـيـهـاـ وـتـطـيـعـهـاـ وـتـوـجـيهـهـاـ بـمـاـ يـخـدـمـ أـهـدـافـ الـاعـتـرـالـ وـسـنـحـاـوـلـ درـاسـةـ الـعـمـلـ السـيـاسـيـ لـدـيـهـمـ فـيـ ضـوءـ آـرـائـهـ الـنـظـرـيـةـ وـنـشـاطـهـمـ الـعـمـلـيـ فـيـ الـعـصـرـيـنـ الـأـمـوـيـ وـالـعـبـاسـيـ.

الأصل الأول لديهم العدل: بما يعنيه من حرية الإنسان و اختياره و مسئوليته عن أفعاله المخلوقة له. و عند التثبت في هذا الأصل ستجده (سياسي وليس عقائدي) حيث يرمي إلى تثبيت مسئولية الفرد على أفعاله وأهله باختيار حر منه وهذا بطبيعته موقف مضاد للجبر الذي فرضته الدولة الأموية كعقيدة ترمي من وراءه إلى تسكين ثائرة الناس عن ما أوقعوه

(٤) كما تصدوا كذلك للأفكار الغربية عن نقاط عقيدة التوحيد الإسلامية، أفكار التشبيه والتحسيم فأظهروا في مقابلها الفكر التربوي التحريري (انظر عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة صـ ٢٩٢ تحقيق د/عبدالكريم عثمان ط القاهرة ١٩٦٥م. والمغني في أبواب التوحيد والعدل جـ ٥ صـ ١٥١ ط القاهرة).

(٥) حيث ظهروا حول بداية القرن الثاني المحرى بينما نشأت الفرق الأخرى منذ وقت مبكر أبان الفتنة الكبرى.

أما المعتزلة فقد أخذت بكونه فاسق وردت بقية الآراء حيث انفردت في كونه في مترفة وسط بين مترلتى الكفر والإيمان، وأنه بعد ذلك مخلد في النار وأن يكون في درجة من العذاب دون المشركين والكافر^(١)

وبالبحث عن الملابسات التي أثمرت هذا الأصل سوف نجدها تتحضر في تقويم الدولة الأموية ورجالات حكمها وجيهازها الإداري والمالي والعسكري.... فأركان هذه الدولة هم الذين فشت مظالمهم وأصبح الجميع شبه متتفقين على أنهم من مرتكبي الكبائر وعلى أنهم "فسقة" ثم كانت الاختلافات الواردة الذكر إلى أن انفرد المعتزلة بهذا القول الرامي إلى كونهم في مترلة بين مترلتين ومخلدين في النار.

ويبدو أن "واصل بن عطاء" حاول في زمانه التوفيق بين القوى المعارضة لمواجهة الخلافة الأموية^(٢)

إذن: فهذا الأصل أبعد ما يمكن عن أنه مجرد موقف من الإنسان العادى الذى ارتكب ذنبًا من الذنوب الكبائر ثم يموت دون أن يتوب منه بل في الحقيقة هو أصل سياسى بالدرجة الأولى موجه إلى تقويم الدولة وجيهازها الظالم.

٤- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

وهو أصل أخذت به معظم فرق المعارضة ومنهم المعتزلة بناء على اغتصاب بنى أمية

(١) انظر هذا الأصل مفصلاً في شرح الأصول الخمسة ص ١٣٨، والبغدادى الفرق بين الفرق ص ١٠٠:٩٩ ط بيروت ١٩٧٣ والمسعودى: مروج الذهب ج ١ ص ٢٧١ (ولامبر للقول بأن المعتزلة اقتبسوا هذا المبدأ من فكرة الوسط الذهنى عند أرسطو عندما قال بأن الفضيلة وسط بين إفراط وتفريط، فالقرآن الكريم حاصل بالإيات التي تحذر الاعتدال كقوله "وجعلناكم أمة وسطاً...").

(٢) ورأيه في الإمامة مصدق تلك الحقيقة إذ وافق الحوارج في مبدأ اختيار الأئمة أمامها من قريش أو غيرها كما اقترب من رأى الشيعة حين قال بأن وجود الإمام واجب على أهل كل عصر (المسعودى: مروج الذهب ص ٢٧١).

الخلافة، لذا وجب على الجماعة الإسلامية النضال وفقاً لهذا المبدأ مع بعض التحفظات، وهي على حد قوله: "إذا كانa جماعة و كان الغالب عندنا أننا نکفر مخالفينا وأن يكون الخروج مع أمام عادل"^(١).

لذلك لم يكن عزوف المعتزلة عن مناجزة الأميين تقاعساً واستكانة، وإنما وعوا الدروس المستفادة من التجارب التي وقعت لأسلافهم ، ومن هنا كانت سياستهم إزاء بنى أمية والعباسيين ذات شقين: محاولة احتواء الخلافة وترشيدها أو العمل السرى المنظم ولقد نجح المعتزلة بالفعل في احتواء بعض الخلفاء الأميين الأوائل وكذا بعض خلفاء بنى العباس، فاعتنتوا آرائهم وعولوا على اتباع سياسة الإصلاح ك الخليفة الأموي "يزيد بن الوليد بن عبد الملك"^(٢) حيث قال بالقدر ودعا الناس إلى الأخذ به^(٣). وبنجاح يزيد في اعتلاء الخلافة يعتبر حركة تصحيح سياسي قام بها المعتزلة فساندوه لدينه وورعه، وقدبلغ رؤساء الاعتزاز

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ٤٦٦ (وهذه الحجية تجمع بين الاستارة والتعقل في الإعداد للثورة وبين عدالة القضية التي من أجلها تسل السيف لهذا التمسوا العذر لتوقف الصحابة والتابعين وأهل العدل عن مناواة بنى أمية. أحد أمين (ضحى الإسلام ج ٣ ص ٨٠، انظر أيضاً ابن أبي الحديد: شرح منهج البلاغة ج ١٩ ص ٣١١ تحقيق محمد أبو الفضل ط ١٩٥٩م).

(٢) هو الخليفة القرشى الأموي الدمشقى استخلف بعهد عهده له أخيه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز، وأمه هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ولد ٧١٥هـ - وقيل: مات بسواد الأردن ١٠٥هـ وكانت دولته أربعة أعوام وشهر وعهد بالخلافة لأخيه هشام (الحافظ الذهبي أعلام النبلاء ج ٥ رقم ٥٣ ص ١٠٤٣).

(٣) وهذا يتضح منه أيضاً بأن فرقة كالقدرة قد نشأت أيضاً تحت مظلة السياسة وأحكامها حيث ارتضتها الخليفة الأموي يزيد بن الوليد فأصبحت مذهبًا مشاعًا ويقابلها الجبرية كمذهب قد يدروا اعتقادياً من حيث الظاهر لكن في الحقيقة مرجوعه إلى تبني بنى أمية هذا الفكر ومحاولة تحسيسه واقناع العامة به ليرضخوا لحكمهم أيام كان".

ولم ينجح المعتزلة في احتواء الخلافة إلا منذ عصر "المأمون" الذي اعتنق مذهبهم وقرب إليه شيوخهم وأعلن الاعتزال مذهبًا رسميًّا للدولة، وخلفه "المعتصم" "والواثق"^(١) إلى أن أتى عهد "المتوكل" الذي انتعش فيه المذهب السنوي من جديد وامتحن المعتزلة حيث استهل المتوكل حكمه بأن نهى عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الأفاق^(٢) وأحرقوا كتبهم واضطهدوهم أشد الاضطهاد، ثم مانلبت أن نجد نجم المعتزلة يلمع من جديد باستيلاء "البوهين"^(٣) على العراق^(٤) حيث كانوا شيعة وأسرفوا في إذلال الخلفاء فوجد المعتزلة الفرصة مواتية لاحتواء السلاطين الجدد ونجحوا في استمالة بعضهم إلى مذهبهم والتحمموا بالشيعة آنذاك ضد السنة وتسرب الاعتزال إلى الدعوات الشيعية كالقراطمة والباطنية^(٥).

— ثم وفدت موجة تركية سنية غازية من الشرق استولت على بغداد^(٦) هي الموجة "السلجوقية"^(٧) حيث لم ينج الأشاعرة والمتصوفة وقضى على الاعتزال قضاء مبرماً،

(١) انظر د/البير نصري نادر: فلسفة المعتزلة جـ ١ ص ٢٩ ط الاسكندرية.

(٢) راجع ابن الأثير: الكامل جـ ٧ ص ٤٣.

(٣) اختلف في نسبة فيذكر أئمَّة يرجعون في نسبهم إلى هرمان جور بن يزدجر الملك الساساني، أما ابن الأثير فيرى أن نسبتهم إلى قوم الديلم بسبب طول مقامهم بيلادهم. حكم أول بويه رقة من العالم الإسلامي واقاموا دولة كبيرة عرفت بـ(الدولة البوهينية) وضمت بلاد فارس والعراق ابتداءً عام ٣٢١هـ في فارس ٣٢٤هـ في العراق واتته حكمهم بسيطرة السلاجقة ودخولهم بغداد ٤٤٧هـ - (تاریخ الدولة البوهینیة نقلًا عن:

www.annabaa.org/nba371dawla.htm

(٤) انظر: أحمد أمين ظهور الإسلام جـ ٢ ص ٤٣.

(٥) هم بنو سلحوق وهي سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران وأجزاء من الأنضول وسوريا والعراق والجزيرة العربية ما بين ١٠٣٨ - ١١٥٧ م حتى (١١٩٤) م كان مقرها مرو ثم أصفهان وقد دخلت الإسلام أثناء عهد زعيمها "سلحوق" سنة ٩٦٠ م وقد بلغت الدولة أوجها في عهد-

في عهده شأن عظيمًا فهيمنا على شئون الحكم ووجهوه وفق مبادئهم^(١) ومن ثم حق لفهوزن القول بأن تأثير المعتزلة على "يزيد" لم يكن دينيًّا فقط بل تعداه إلى شئون السياسة والحكم^(٢).

إذن فهذا الأصل هو أكثر أصول المعتزلة اختصاصًا بالجانب السياسي من فكرهم العام ونظرتهم السياسية عندما وضعت في الممارسة والتطبيق. وهذا الأصل مع الوعد والوعيد والمترلة بين المترلين بل والعدل يكونون الأصول الأربع ذات الطابع السياسي من الأصول الخمسة التي كانت الأعمدة الفكرية في النظرية العامة للمعتزلة.

الجانب السياسي للدعوة السرية الاعتزالية:

وبعثه وجود إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويعيِّن الجيوش ويقسم الغنائم وينصف المظلوم وينتصف من الظالم ولما خاب أمل المعتزلة في بني أمية لتحقيق تلك الغاية وأيقنوا تذكر بني العباس للعدالة والإصلاح عولوا على الدعوة لإمام منهم وفق تنظيم محكم وسياسة مرسومة^(٣).

— ولكن الثابت أن المعتزلة لم يوفقا في تأسيس دولة تدين بالاعتزال شأن الفرق الأخرى السياسية الذين أقاموا دولاً على أساس مذهبي، ولم تسفر جهودهم إلا عن تكوين جماعات متৎسة أقامت كأقاليم في الدول التي أقامها الخوارج والعلويون في المغرب. ويدعى أن يستمرروا على موقفهم العدائى للخلافة أيام حكم المهدى وعصر الرشيد الذين أسرفوا في اضطهاد الفرق المخالفه لأهل السنة حيث منعوا الجدال في الدين وحبسو أهل الكلام^(٤).

(١) الطري جـ ٩ ص ٤٤.

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٣٥٥.

(٣) انظر ابن أبي الحديد: شرح منهج البلاغة جـ ٤ ص ٤٥٥.

(٤) الطري جـ ١٠ ص ٧١.

لا يعرفها رجال النقد من المحدثين، وقد اختار القوم لغرس دعوئهم بلاداً كانت من قبل مهدًا للتشييع وحب آل البيت وهي الكوفة وخراسان.

فقد يما قامت بلاد (العراق) بنصر "عليّ بن أبي طالب" وقامت لشأنه للحسين بن عليّ، وواجهت في نصر "زيد بن الحسين" وابنه يحيى. فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهتها كما اختاروا بلاد (خراسان) لتكون مشرقاً لقومهم وأذاعوا في ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهلها لذلك. وكان الذين دخلوا في الإسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثير بأراء الشيعة^(١).

إذاً بني العباس - وهم أبناء عمومة النبي - قد لبوا زماماً يتطلعون إلى الملك، ولم تكن لهم عصبية كافية اندرجوا في الحركة الشيعية، ووحدوا في التذرع بها وسيلة ناجحة لاستهواء الجموع، وكانت أول بادرة خطيرة لحركتهم قيام (أبي مسلم الخراساني)^(٢) في خراسان بالدعوة إلى إبراهيم الإمام. فلما توفي إبراهيم زعم بني العباس أنه أوصى بالإمامنة إلى أخيه "عبد الله أبي العباس" المعروف (بالسفاح) ثم توات الأحداث وانتهت بقيام الدولة العباسية.^(٣) وقد أعطت هذه السياسة الدينية للخلافة العباسية مساحة من القداسة بحيث أضحت سلطان الخلفاء مستمدًا من الله سبحانه وتعالى^(٤) هكذا استغل بني العباس حركة

(١) انظر الشيخ محمد الحضرى بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ص ١٥: ٣١.

(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم، ويقال: عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخراسان، الأمير صاحب الدعوى وهازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية كان من أكبر الملوك في الإسلام ذا شأن عجيب ونباً غريب مولده في سنة مائة وأول ظهوره بمرو ١٢٩هـ - وذكر أنه قُتل في شعبان ١٣٧هـ - وقيل عمره ٣٧ سنة (الحافظي: أعلام النبلاء ج ٦ رقم ١٥ ص ١٤٧).

(٣) انظر: تاريخ الجمعيات السرية ص ٢٦: ٢٧.

(٤) راجع ذلك في نص خطبة أبي حفيف المنصور عند ابن كثير ج ١٠ ص ١٢٢: ١٢٣ البداية والنهاية

دار المعارف بيروت ط ٢١٩٧٧ م.

كما كان ظهور الغزالى في هذا العصر كفيلاً بغلبة التيار السلفي واعتزال المعتزلة ميدان الفكر والسياسة^(١). هكذا كان النشاط السياسي للمعتزلة متسبقاً مع جوهر آرائهم الاعتقادية.

أسلوب الاحتضان والتبني للمذهبيات الإسلامية:
فكير الاحتضان بمعناه الواسع ينطلق من أكثر من منحى، حيث وجدناه عند هؤلاء النفر من طامعي الريادة والسلطة ومدى استغلالهم لفكر مذهبى موجوداً بالفعل والتسلق من خلاله إلى بناء دولة وملك كما هو الأمر في وجود دولة بني العباس.

- أو يظهر هذا الاحتضان في صورة أخرى كوجود دولة بالفعل تجتمع جنوحًا واضحاً لذهب ما فثبتت وجوده وتقوى كيانه المذهبى وتبناه مذهبًا رسميًا لها ما يزيد من طول بقائه ويقوى وجوده فينخدع به العوام اعتماداً على تفسيرهم لبقاءه وقوته لصحة أمره اعتقادياً وهو عن هذا بعيد وما يقارئه وheimته إلا لأمور سياسية لا شأن لها بدین أو عقيدة.

ويتضح ذلك واقعياً بما سأورد من أمثلة تاريخية تؤكد هذا الأمر كما يلى:
أ- الوجه الأول للاحتضان : المتمثل في بني العباس واستغلالهم للمذهب الشيعي وبناء الدولة العباسية، قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض باسم الدين، والسلاح الذي استعمل فيها للتأثير في العقول هو إعادة الأمر لآل محمد صلى الله عليه وسلم ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاعوا من صفات النقص والبعد عن الدين، ووضعوا في ذممهم أحاديث أسندها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

=السلطان قلب أرسلان (١٠٦٠/١٠٧٢) ثم ملك شاه (١٠٩٢/١٠٧٢) وانشئوا العديد من المدارس لثبت المذهب السنى (انظر: أخبار الدولة السلجوقية ١٩٨٤ صدر الدين الحسيني. ترجمة محمد إقبال. دار الأفاق الجديدة بيروت).

(١) انظر د/ محمود إسماعيل الحركات السرية في الإسلام ص ١٠٠.

الخلافة الفاطمية في هذا السبيل عن أن تعدل أحكاماً بأحكام وشعائر بشعائر وأن تستحدث كثيراً من النظم والتقاليد الدينية المذهبية، وكانت منذ قيامها "بمصر" تعمل بكل ما وسعت لبث الدعوة الشيعية تارة في الجهر وتارة في الخفاء^(١).

ومن مظاهر اهتمامها بالمذهب الشيعي: ما فعله "جوهر الصقلي" بعد أن أتم تأسيس القاهرة رأى أن يبني جامعاً تقام فيه شعائر المذهب الشيعي، تجنبًا لإثارة شعور أهل السنة فوضع الحجر الأساسي للجامع الأزهر المعروف (٩٧٠ - ٥٣٥ هـ) ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر إلى جامعة تلقى فيها الدراسات والمحاضرات في علوم الدين على المذهب الشيعي، وذلك بإشارة "يعقوب بن كلس"^(٢) وزير الخليفة "العزيز بن العز لدين الله" (٣٧٨ - ٤٣٧ هـ) ليكون للدولة الفاطمية مركز علمي يندرج إليه الطلاب من متلذتها لدراسة العلوم الدينية ومبادئ الشيعة، واحتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب إلى جامعتهم وقدموا إليهم المأكل والمسكن^(٣).

- كما اتجهت الدولة الفاطمية إلى التعويل الزائد على التأويلاط الكثيرة لمسألة الظاهر والباطن وعن التعلق بخفاء الرموز والأرقام. ومن الواضح أن معظم تلك التأويلاط الباطنة تتجه دائمًا إلى تعزيز نظرية الإمامة وتقديسها واعتبارها هي المحور الأساسي الذي تدور

(١) محمد عبدالله عنان "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية" ص ١٩٤ ط ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣.

(٢) ابن كلس هو الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس وكان في الأصل يهودياً ثم أسلم أيام كافور وزير للمعز ثم للعزيز وكان عالماً أديتاً واشتهر لحماته للعلوم والأداب وهو أول من دخل التدريس المنظم بالجامع الأزهر في عهد العزيز ومن أشهر كتبه مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية وكانت وفاته ٣٨٠ هـ-(راجع المقريزى في الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ وجـ ص ١١:٩).

(٣) ولم يفقد الجامع الأزهر مكانته العلمية بعد زوال الخلافة الفاطمية إذ تولاه سلاطين مصر من المالكية بالرعاية والعناية وحفظوا له هيئته وسمعته (انظر: تاريخ العالم الإسلامي ص ٢٦٥).

الشيعة في شق طريقهم إلى الملك ، والواقع أن الدعوة الشيعية لم تكن في نظر بنى العباس إلا وسيلة فلما ظفروا بغايتهم قلوا للشيعة ظهر الجن، وأخذوا في مطاردهم فرج المنصور إلى السجن جماعة من أسرة "الحسن بن علي".

- وفي (١٤٥ هـ) "خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين" المعروف بالنفس الزكية في المدينة واستولى عليها فأرسل إليه "المنصور" جنده فقتلوه وشتوا أنصاره، وفي عهد "موسى الهادى" ظهر في المدينة "الحسين بن علي" ودعا بالإمامية فقاتلته جند الهادى وقتلوه، وفي عهد "الرشيد"^(٤) (٢٠٧ - ٩٠٩ هـ) خرج "يجى بن عبدالله" من ولد على فقبض عليه الرشيد وسجنه حتى مات. وقد أوردت تلك الأمثلة لنرى كيف أن بنى العباس لم يروا في الدعوة الشيعية إلا سُلماً لارتفاع الملك.

الدولة الفاطمية واحتضانها للمذهب الشيعي:

وما يدل على مدى احتضان السياسة واحتضانها بعض الفرق الإسلامية ما حصل في قيام الدولة الفاطمية، حيث قامت في شمال أفريقيا حركة شيعية تنسب إلى فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم: حتى صارت هذه الحركة تنسب إلى اسمها وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بال المغرب (٢٠٧ - ٩٠٩ هـ). (٥) ولقد كانت الإمامة عنوان الدولة الفاطمية وشعارها البارز، وكانت هذه الإمامة تصطبغ بصبغة مذهبية عميقة، ولم تحجم

(١) الرشيد هو الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدى محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الماشى العباسى استخلف بعهد معقود له بعد المهدى من أبيهما المهدى وروى عنه أنه كان من أ Nigel الخلفاء وأمه أم ولد أسمها "خيزران" وكان مولده بالرى في سنة ٤٨١ هـ وتوفى بطوس - مدينة مشهد فى ايران اليوم - سنة ١٩٣ هـ - ودام حكمه ثلاثة وعشرون سنة (الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٢٠٤٠ رقم ٢٨٧).

(٢) انظر: د/محمد جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري ص ٢٣١: ٢٣٣ ط الرابعة ١٩٧٦ م دار الفكر العربي.

أثر السياسة في المذهبيات الإسلامية

الخطير من أغرب الخطط الدينية التي أنشأها الدولة الفاطمية تحت اسم منصب (داعي الدعاة) ليشرف على بث الدعوة الشيعية على يد نوابه ونقبائه.

إذن لقد كانت الدولة الفاطمية تعنى منذ قيامها بناحية معينة من الدراسات الدينية هي الناحية المذهبية، وفي سبيل بيتها وأذاعتها نظمت مجالس الحكم في القصر وفي الجامع الأزهر، وأنشئت جامعة دار الحكمة الشهيرة في عهد الحاكم بأمر الله، وأنشئ منصب داعي الدعاة ، كما تولى تدريس الأصول الشيعية وفقه آل البيت منذ البداية جماعة من الفقهاء في مقدمتهم بنو النعمان.

إذا فقد اتضح مما سبق أن الدعوة الدينية في يد أولياء المذهب كانت أداة واضحة لتحقيق أغراض السياسية وتدعيم السلطان الزماني الذي سعوا إلى تحقيقه في الخفاء زهاء قرنين والذي كانت الخلافة الفاطمية أعظم مظاهره المادية ومن ثم كان الدين ضحية الأطماع السياسية دائمًا، كما كان العلم والعلماء أذرعهم اليمني ووسيلة التأثير الفعال على العوام والدهماء^(١).

وبعد أن رأينا كيف احتضنت الدولة الفاطمية المذهب الشيعي ولمع نجمه في الأفق من حراء هذا الاحتضان آن لنا أن نرى أفول هذا المذهب نفسه وسطوع المذهب السنوي في الأفق بمحض أن تغيرت السلطة السياسية للدولة حيث انتهى صولجان الدولة الفاطمية وظهرت دولة السلجوقية.

دولة السلجوقية:

حيث حاربت بـلارفـق أو هـوادـة كـافـة المـذاـبـ المـخـالـفـ لـمـذـهـبـ أـهـلـ السـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ وـلـقـدـ انـخـسـرـ المـدـ الشـيـعـيـ وـالـإـسـمـاعـيـلـيـ الفـاطـمـيـ عنـ الجـزـءـ الشـرـقـيـ منـ الـعـالـمـ إـسـلـامـيـ عـقـبـ ظـهـورـ السـلاـجـقـةـ بـالـقـضـاءـ عـلـىـ الدـوـلـةـ الـبـوـيـهـيـةـ وـإـخـمـادـ ثـوـرـةـ الـيـسـاسـيـرـىـ فـيـ بـغـدـادـ (٤٥٠)

(١) انظر كامل حسين: أدب مصر الفاطمية ص ٤٧ سنة ١٩٦٣ ط ٤٧ القاهرة.

حوله قواعد الدين والإيمان. وقد كانت هذه التأويلات الباطنة. في معظم الأحيان عماد الشرح والجدل في مجالس الحكم الشهيرة التي اتخذتها الخلافة الفاطمية سبيلاً لبث دعومها المذهبية^(١).

- وفي عصر الحاكم بأمر الله اتخذت مجالس الحكم أهمية خاصة ونظمت في معهد رسمي خاص يعمل ببث الدعوة الفاطمية السنية، وقد اتخذت تلك الدار طابعاً حراً فدعى إليها الأساتذة من المذهبين الشيعة والسنوة وقرئت بها فضائل الصحابة ، ولكن أبعد عنها أساتذة السنة فيما بعد، وقتل بعضهم وتأكدت بذلك صفتها المذهبية الخاصة^(٢).

- وما يقوى احتضان الدولة الفاطمية للمذهب الشيعي أن المتون الشرعية التي كانت مرجعاً للقضاء في العصر الفاطمي كانت بلا ريب متون الفقه الشيعي أو فقه الإمامية الإسماعيلية وكان العلامة الفقيه الشيعي "أبو حنيفة النعمان بن محمد القิرواني" قاضي العز الدين الله^(٣).

كما وجد أيضاً دعاية من نوع آخر كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتيم ويشرف على تنظيمها وتلقينها زعيم دين كبير يشغل منصباً هاماً في ديوان الخاص، وكان هذا المنصب

(١) محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله ص ٢٦٢.

(٢) انظر ابن تغري بردي: النحومن الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٤ ص ٢٢٣ ط دار الكتب (وكان دار الحكم في ظاهرها جامعة حرة علنية يلتحق بها من يشاء ولكن هذا المظهر العلمي لم يكن في الواقع إلا ستار للغاية الأصلية التي أنشئت دار الحكم لتحقيقها وهي بث الدعوة الفاطمية السنية بطريقة علمية منتظمة وهي أكثر أثراً في غزو الأذهان والعقائد في مجالس القصر) انظر أيضاً تاريخ الجمعيات السنية ص ٤٢:٤١.

(٣) وهم أسرة مغربية ناجحة قدمت إلى مصر في ركب العز الدين الله وتعاقب بنوها في قضاء مصر زهاء نصف قرن وكان عميدها العلامة أبو حنيفة النعمان المعروف بابن حيون المتوفى ٣٦٣هـ ومن أهم كتبه دائم الإسلام.

أنه أوسع رحاباً^(١).

- كما قام "صلاح الدين" اقتداء بما فعله الملك العادل "نور الدين زنكي" في الشام بإنشاء المدارس في مصر ودمشق وحلب لتعليم المذهب السنى على أوسع نطاق وقطع دابر المعتقدات الفاسدة، وكانت أولى المدارس الحنفية التي بناها صلاح الدين عام (٥٧٢هـ) وكان أصلها دار الوزير الفاطمي المأمون البطائحي وعرفت بالمدرسة السيوية.

وأنشأ كذلك أول مدرسة في مصر باسم المدرسة الناصرية عام (٥٦٦هـ) لتدريس الفقه الشافعى ثم توالت العديد من المدارس^(٢). وظل الأمر في قمع المذهب الشيعى على هذا المنوال حتى وصل الأمر في عهد "الظاهر برقوق" عندما قام أحد الأمراء المسمى "جهازكسي" وكان أميراً جاهلاً. فقال: إن الفاطميين شيعة رواض وعده إلى قبورهم فهتك حرمتها وهدمها وحمل عظام الموتى وألقاها على كيمان البرقية^(٣) إذن لقد اتضحت من خلال عرض تلك البيانات والأمثلة الواقعية مدى استغلال المذهب والمعتقد لتحقيق مآرب سياسية وأهواء سلطوية بختة. كما اتضحت كيف يختلس مذهب ما الساحة الدينية ويمتلك على الناس عقولهم وألباهم في ظل احتضان الساسة والحكام له، إذن فالامر لم يكن في يوم من الأيام مناظرة أو مقابلة بين مذهب وآخر وإنما لعبه سياسية يتأتى كل شيء باسم الدين.

(١) انظر: محمد عبدالله عنان: تاريخ الجامع الأزهرص ١١١:١١٠ ط الثانية مؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٨م "ولبثت إقامة الجمعة معطلة بالجامع الأزهر نحو مائة عام من ٥٦٧هـ إلى ٦٦٥هـ في عصر الملك الظاهر سيرس".

(٢) أحمد عبد الجواد الدومي: صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله ١٣١:١٣٠ منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت.

(٣) وهي كيمان جمعها الخليفة الحاكم بأمر الله حميد المعز الفاطمى لتكون سداً يمنع السيول من الاندفاق إلى القاهرة من جانبها الشرقي (إبراهيم جلال كتاب المعز لدين الله الفاطمى وتشيد مدينة القاهرة ص ١١ دار الفكر العربي ١٩٦٣).

— كانت الأحداث تتواتر بسرعة غريبة في صالح المعسكر السنى، وبدأ الموقف في ذلك الجزع من العالم الإسلامي وكأنه لن تقوم قائمة لأى مذهب آخر غير المذهب السنى طالما يسيطر السلاجقة ذو القدرة المائلة في القسر والقمع، بل أنها نجد هؤلاء السلاجقة يتزمون جانب الخيبة ويبالغون في رصد مواقع الفتوح التي قد تكب منها رياح مخالفة.

— كما أن نظام الملك يحرص على تشيد المدارس التي سميت باسمه في المدن الهامة مثل بغداد وأصفهان وبلغ ونيسابور وهراء والبصرة ومورو وأأمل والموصل فأنشأ في كل مدينة بالعراق وخرسان مدرسة.^(٤) وهي المدارس التي اشتهر ذكرها في التاريخ بأنها رفعت لواء الدفاع عن مذهب السنة ومناهضة المذاهب المخالفة، وكانت نشأتها في الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية، ولقد قاوم نظام الملك المذهب الإسماعيلي بأقصى ما يستطيع من قوة، وصبح عداء الإمامية للدولة السلجوقية بصبغة العداء للدين نفسه^(٥).

المذهب السنى في عهد الدولة الأيوبية ومظاهر أول المذهب الشيعي:
لما أذن الله بزوال الدولة الفاطمية على يد وزيرها "صلاح الدين الأيوبى" حيث استأثر بالأمر، عمد إلى إزالة شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها وآثارها المذهبية، فقطع اسم العاضد من الخطبة ودعا للخليفة العباسى، وأبطل من الآذان: "حى على خير العمل" وعزل قضاة الشيعة، وعيين في منصب قاضى القضاة قاضياً شافعياً هو: "صدر الدين عبد الملك ابن درباس" وجعل له نواباً من القضاة الشافعية، فكان ذلك إيذاناً بانتشار مذهب الشافعى في مصر. و"افتى ابن درباس" وفقاً لرأى الشافعى بأنه لا يجوز إقامة خطبتين لل الجمعة في بلد واحد فأبطل إقامة الجمعة بالجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي بمحجة

(٤) انظر: د/أحمد شلى تاريخ التربية الإسلامية و/عبد النعيم حسين سلاجقة إيران والعراق ص ٨١.

(٥) انظر المرجع السابق نفس الصفحة.

٦— كما بدا واضحًا أن المسلمين لا يصلح آخرهم إلا بما صلح به أو لهم، وحدة في غير انقسام واتلاف في غير انقسام، وجع لاتفرق فيه، بل يكونون كما قال النبي (ص) "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا أشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ويتحقق قوله (ص): "ال المسلم أخوه المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله".

٧— كما كان من أهم الأسباب المعنوية للفرق وظهور المذهبيات انبعاث العصبية العربية ومعها الشعوبية غير العربية ومن وراء الفرق الإسلامية الملوك وشهوائم وانخاذ كل ملك حيزاً من الأرض يزود دونه حتى أكلوا جيئاً وتفرق المسلمين.

٨— كما أن الاختلاف الطائفي والمذهبي أدى إلى أن تنشأ دول تفك الوحدة التي عقدها النبي (ص) ووثقها بالإيماء والمولا، ولم تكن تبعة هذا الاختلاف تقع على فرقه بعينها بل على الملوك والأمراء؛ لأنهم لم يعالجو الأمر بالالتافي على أحكام القرآن والسنة بل عاجلوه بالقتال والقتل وبث العيون وتبع الناس.

٩— كما كانت السياسة التي انشأت المذهبيات سبباً في الفتن والثورات المتالية على بني أمية أولًا ثم بني العباس ثانية، مما أدى إلى توهين شأن الوحدة، وازدياد الحكام عنفاً وازدياد الشعوب ضعفاً. كما كان لها أثراً بالغاً في الانفصال النفسي بين هذه المذهبيات حيث اعتبرت كل فرقة نفسها مسلمة منفصلة عن الآخرين، وأن أتباعها هم وحدتهم المسلمين. كما ترتب عليه الاختلاف في تطبيق بعض الأحكام لأختلافهم في المذهب وإن كان ذلك لا خطراً فيه في ذاته ولكن له أثراً في الفرق والانقسام في داخل الدولة الواحدة.

١٠— كما أضحى واضحًا بأن هناك خط تلاقي بين كل الفرق والمذهبيات حيث التدخل السياسي في النشأة أوفي الاستمرار أو في الفناء وبعد عن الساحة الإسلامية

أهم نتائج البحث

١— لقد اتضح بأن السلطة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فيها السياسة نابعة من الدين، حيث كانت حياة الرسول (ص) تطبيقاً كاملاً للنظرية الإسلامية، فكان أثر هذا أن أسقط من يد الخصوم إيجاد التغيرة التي ينفذون منها لزرع أقوالهم وموافقهم المتطرفة.

٢— كما أضحى واضحًا أن الاختلاف على الإمامة كان البذرة الأولى لكثير من الاختلافات التي وقعت، كما كان الركيزة لكثير من الحركات المغالية والمذهبيات لاسيما في الفترة الأموية.

٣— كما أضحى واضحًا أيضًا: بأن السبب في عدم قيام المذهبيات بشكل حاد وظاهر في أيام الراشدين أن الاتساق بين السلطة والنظرية كان جيداً، حيث كانت الخلافة آنذاك نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به.

٤— ثم مالبث أن كان الخروج على التطابق بين السلطة والنظرية الإسلامية الذي أعطى لكثير من الفئات على اختلافها مادة للمعارضة. وكان ذلك أيام عثمان سوءاً كان عن حرص على الإسلام أم من أجل الم Harm)، وانتهت بمقتلة (٣٥هـ) وأصبح مقتله والاختلاف على سياسته مجالاً واسعاً لاختلافات كبيرة عمل فيها وخلفها كثير من الفرق والغلاة والخصوم.

٥— كما يحق لنا أن نقول بأنه قد تناولت على ساحة السلطة أيام الراشدين صور متاثرة وموقع مختلفة وانقسامات شتى وتفاصيل للموقف الواحد متضاربة. فهناك خليفة يقتل في بيته وحروب بين المسلمين، وهناك حكم بالكافر على هذا أو ذاك من الأطراف المتنازعة. من جراء كل هذه الأجواء كان المجال الخصب الذي عملت فيه الفرق والمذهبيات على اختلافها وتنوعها.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري)

صحيح البخاري: تحقيق محمد على القطب. المكتبة العصرية. بيروت لبنان.

الترمذى (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة)

الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الكتاب العلمية

بيروت، لبنان ط أولى ١٩٨٧م. وطبعه دار الحديث القاهرة تحقيق أحمد محمد

شاكر.

١- آل كاشف الغطاء (محمد الحسين آل كاشف الغطاء)

أصل الشيعة وأصولها. تحقيق الشيخ محمد جعفر شمس الدين ط ١٩٩٣م

٢- إبراهيم جلال

المعز لدين الله الفاطمي وتشييد مدينة القاهرة. دار الفكر العربي ١٩٦٣م

٣- ابن أبي الحميد (عز الدين أبو حامد بن هبة الله محمد بن الحسين بن أبي

الحديد المدائى) شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ط ١٩٥٩ سنة ١٩

دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي.

٤- ابن الأثير (أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد

الشيباني) الملقب بعزيز الدين المعروف بابن الأثير.

الكامل في التاريخ ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧م وطبعه دار صادر بيروت

١٩٧٩

٥- ابن النديم (محمد بن إسحاق)

الفهرست. دار المعرفة بيروت ١٩٧٨م.

ثم الزوج بهم من قبل أنفسهم أو من قبل غيرهم إلى خلاف عقائده في صلب الدين فنراهم ممزوجوا بين الدين والسياسة وخلطاوا بين الحكم والعقيدة.

١١- كما تبين لنا إمكانية تغير وانخضاع كل الأحداث والأمور حتى ما كان منها عقائده تحت مطامع الساسة والملوك حيث أقحمت الأمة الإسلامية وأدخلت في محن عصيبة (فتنة خلق القرآن) الذي تبين أنها كانت ضرباً من الهوس المذهبي الذي لا يستحق كل هذا الغلو والذي لا يقدم ولا يؤخر في صلب العقيدة لو لا تدخل الحكام والساسة وتحول الفكرة والعقيدة إلى تبني سياسي .

١٢- كما رأينا فكرة الاحتضان والتبني لبعض المذهبيات الإسلامية الذي انطلقت من هؤلاء النفر من طامعي الرياسة والسلطة ومدى استغلامهم لفكرة مذهبية موجود بالفعل والتسلق من خلاله إلى بناء دولة وملك، أو تقويته وثبتت أواصره وبقاءه أطول مدة ممكنة مما يخدع العوام بأن هذا البقاء والقوة لصحة أمره اعتقادياً وهو عن هذا بعيد وما يقارئه وهيمنته إلا لأمور سياسية لا شأن لها بدين أو عقيدة.

- الإمامية والرد على الرافضة تحقيق د/على ناصر فقيهي
- ١٥ - إحسان إلهي ظهير
- السنة والشيعة علق عليه عبدالسميع محمود دار عمار للنشر عمان.
- ١٦ - أحمد أمين
- فجر الإسلام الطبعة الخامسة ١٩٤٥ م
- وضحي الإسلام جـ ٣ طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ط ١٢ لسنة ١٩٧٨ م
- ١٧ - أحمد شلي
- تاريخ التربية الإسلامية
- ١٨ - أحمد عبدالواحد الرومي
- صلاح الدين الأيوبي الناصر للدين الله منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت.
- ١٩ - الإسفرايني (أبو المظفر الأسفرايني)
- التبصير في الدين تحقيق محمد الكوثري مكتبة الخانجي ١٩٥٥ م
- ٢٠ - الأشعري (أبو الحسن الأشعري)
- مقالات المسلمين واختلاف المصلين تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد جـ ١ مكتبة النهضة القاهرة ١٩٦٩ م
- ٢١ - د/ابراهيم أحمد العدوى تاريخ العالم الإسلامي جـ ١
- ٢٢ - ألبير نصري نادر
- أهم الفرق الإسلامية السياسية والكلامية، فلسفة المعتزلة جـ ١ ط الإسكندرية.
- ٢٣ - برنارد لويس :أصول الإمامية ترجمة حكمت تلحوظ مراجعة وتقديم د/خليل
- أحمد خليل مطبعة دار الحديثة لبنان جـ ١ لسنة ١٩٨١ م.
- ٤ - البغدادي (عبدالقاهر البغدادي)

٦ - ابن تغري بردى (جمال الدين أبو الحasan يوسف بن تغري بردى)
النحوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٤ ط دار الكتاب المؤسسة المصرية للتأليف
والترجمة

٧ - ابن تيمية (الإمام تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني)
منهج السنة النبوية جـ ٦ تحقيق د/محمد رشاد سالم
مجموعة الفتاوى.

٨ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري)
الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ٢ دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان
ط ٢ سنة ١٩٧٥ م

٩ - ابن حجر (الحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني)
الإصابة في تمييز الصحابة جـ ١ .

١٠ - ابن الجوزي (أبوالفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزي) القرشى
تلبيس أبيليس. دار الكتب العلمية بيروت.

١١ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) الحضرة
المقدمة طبع على عبد الواحد وافي ط الثالثة المطبعة الأميرية ١٣٢٠ هـ

١٢ - ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير)
البداية والنهاية جـ ١ دار المعارف بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٧ م

١٣ - أبو المعالي العلوى
بيان الأديان الترجمة العربية

١٤ - أبو نعيم

- الافق الجديدة.بيروت
٣١ - صلاح أبو السعود
- المرجع الكامل في الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية منذ سقيفة بني ساعدة إلى اليوم مكتبة النافذة ط أولى لسنة ٢٠٠٥م
٣٢ - الطبرى(تاريخ الملوك والأمم ج ٥ ط مصر
- ٣٣ - عبدالنعيم حسين(سلاجقة إيران والعراق
٣٤ - فلهاؤزن
- أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام(الخوارج والشيعة) ترجمة عن الألمانية
د/عبد الرحمن بدوى ج ١ ط ١٩٥٨م الناشر وكالة المطبوعات
- ٣٥ - الفيروز أبادى
القاموس المحيط
- ٣٦ - القاضى عبد الجبار(أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله
المهذانى الأسدأبادى
- أ- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ط تونس ١٩٧٢م
ب- شرح الأصول الخمسة تحقيق د/عبدالكريم عثمان ط القاهرة ١٩٦٥م
ج- المغنى في أبواب التوحيد والعدل ج ٥ ط القاهرة
٣٧ - القمي(سعد بن عبد الله أبوخلف الأشعري القمي)
- مقالات وفرق تقديم وتعليق د/محمد جواد مشكور نشر مؤسسة مطبوعات طهران
١٩٦٣
٣٨ - كامل حسين
أدب مصر الفاطمية ط ٢ ١٩٦٣م القاهرة

- الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم، تحقيق وتقديم طه عبد الرءوف سعد طبع
ونشر مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة بدون التاريخ.
٢٥ - د/حامد ربيع
مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي ج ١ تعليق د/سيف الدين
إسماعيل مكتبة الشروق الدولية.
٢٦ - حامد عبدالقادر: زرادشت الحكيم سلسلة قادة الفكر(الكتاب الأول هضبة مصر
١٩٥٦م
٢٧ - حبيب سعيد:أديان العالم - دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية - القاهرة
١٩٧٧م
٢٨ - الحافظ الذهبي (الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز الذهبي أبو عبدالله):
سير أعلام النبلاء - دار النشر مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ الطبعة التاسعة
تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي
٢٩ - الحسيني عبدالله
المذور التاريخية للنصرية العلوية دار الاعتصام
٣٠ - الخطيب البغدادي (الحافظ أبي بكر أحمد بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت
البغدادي المعروف بابن الخطيب تاريخ بغداد.الناشر دار الكتب العلمية بيروت
٣١ - الخطاط المعتزلي(أبوالحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخطاط المعتزلي)
الانتصار والرد على ابن الروانى الملحد ترجمة البيرونادر بيروت ١٩٧٥م
٣٢ - الشهريستاني(أبوالفتح بن عبد الكريم بن أبي بكر أحد الشهريستاني)
الملل والنحل ج ١ تحقيق محمد سيد كيلاني مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ١٩٧٦م
٣٣ - صدر الدين الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية(١٩٨٤) ترجمة محمد إقبال دار

- الإثنا عشرية وأهل البيت
٤٩— محمد خليفة:
- تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة ط ١٩٩٦ م ١٩٩٦
- ٥٠— محمد عبدالله عنان
- تاريخ الحركات السرية والحركات المدama مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١
- تاريخ الجامع الأزهر ط الثانية مؤسسة الخانجي القاهرة ١٩٥٨ م ١٩٥٨
- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ط ٣ سنة ١٩٨٣ م ١٩٨٣
- ٥١— د/محمد عماره
- تيارات الفكر الإسلامي دار الشروق ط الثانية ٢٠٠٧ م ٢٠٠٧
- ٥٢— الشيخ محمد الخضرى بك
- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية
- ٥٣— د/ محمود إسماعيل
- الحركات السياسية
- الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية دار العلم بيروت .لبنان ط أولى ١٩٧٣ م ١٩٧٣
- ٥٤— المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي)
- مروج الذهب جـ ١ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. دار الفكر بيروت ١٩٧٣ م ١٩٧٣
- ٥٥— الملطي (أبو الحسين محمد بن عبد الرحمن الملطي)
- التبيعة والرد على أهل الأهواء والبدع تقديم وتعليق محمد زاهد الحسن الكوثري مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٨ م ١٩٦٨
- ٥٦— مصطفى الشكعة:

- ٣٩— الكليني (محمد بن يعقوب الكليني)
أصول الكاف جـ ١ - مطبعة الحيدري طهران
- ٤٠— ل.ر. ماكفير أستاذ أمريكي
الجماعة دراسة في علم الاجتماع ترجمة محمد علي أبو رده ولouis اسكندر مراجعة د/حسن الساعاتي.
- ٤١— لفان فلوتن:السيادة العربية ترجمة د/حسن إبراهيم ومحمد زكي إبراهيم مكتبة الهضة المصرية ١٩٦٥
- ٤٢— الإمام محمد أبو زهرة
الوحدة الإسلامية ط ٢ سنة ١٩٧٧ م دار الفكر العربي
- ٤٣— د/محمد البهى:الجانب الإلهى من التفكير الإسلامي جـ ١ الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ط ٤ سنة ١٩٦٧ م ١٩٦٧
- ٤٤— د/محمد السعيد جمال الدين
دولة الإسماعيلية في إيران ط ١٩٧٥ م الناشر مؤسسة سجل العرب
- ٤٥— محمد الطاهر النيفير
أهم الفرق الإسلامية الشركة التونسية للنشر والتوزيع
- ٤٦— محمد جابر عبد العال:حركات الشيعة المتطرفين في العصر العباسي الأول ط الثانية ١٩٦٧ م الناشر دار المعرفة
- ٤٧— د/محمد جمال الدين سرور
تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري ط الرابعة ١٩٧٦ م دار الفكر العربي
- ٤٨— محمد جواد

فهرس الموضوعات

الصفحة	<u>الموضوع</u>
١١	المقدمة.....
١٣	طريقة البحث.....
١٤	أثر السياسة في المذهبيات الإسلامية.....
١٥	الإسلام والمذهبية.....
٢٢	أسباب عدم ظهور المذهبية في عهدى أبو بكر وعمر.....
٢٤	انتفاء المذهبية في عهد عمر بن الخطاب.....
٢٦	الفتنة وأثارها في ظهور المذهبية.....
٢٩	البيعة لعلي بدایة المذهبیات.....
٣١	الخوارج بدایة وتفرقًا.....
٤٠	فرقة الشيعة والنشأة السياسية.....
٧٦	أهم نتائج البحث.....
٧٩	أهم المصادر والمراجع.....

* * *

- إسلام بلا مذاهب طبعة منقحة الناشر الدار المصرية اللبنانية ط الثانية ١٩٩١ م
- ٥٧ - المقريزى(الإمام تقى الدين أحمد بن على عبد القادر المعروف بالمقريزى)
(خطط المقريزى) جـ ٣ ط دار التحرير القاهرة. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار
- ٥٨ - نصر بن مزاحم
موقعه صفين تحقيق عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٨٢ هـ
- ٥٩ - هاملتون جب
دراسات في حضارة الإسلام
- ٦٠ - يحيى هاشم حسن فرغل
الفرق الإسلامية في الميزان. الأفاق العربية ط أولى ٢٠٠٧ م
- نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية
١٩٧٣ م